محمد نور الدين

احترس من الدولار



محمد نور الدين

احترس من الدولار

BE CARFULL OF THE DOLLAR

BY

MOHAMED NOUR EDDIN



الأنتشار العربي
Arab Diffusion Company (UK) Ltd
LONDON - BEIRUT
Email: healthyliving@t-net.com.lb
P.o.box:113/5752- Beirut

الطبعة الاولى ١٩٩٨

First Published in 1998

احترس من الدولار

بسم الله الرحمن الرحيم

بالرغم من أن هذا السائق القاهري ليس مجرماً، ولم يفكر من قبل في ارتكاب أية جريمة، إلا أنه كان مضطراً في هذه الليلة إلى التفكير في ارتكاب جريمة قتل الراكب الذي أتى به من المطار، فلقد همس لنفسه مقترحاً: «ماذا لو أوقفت التاكسي بجانب هذا النهر الواسع العميق الذي يحف بالطريق.. وأستولي على كل ما عاد به من هدايا و(دولارات) من بلاد البترول؟!.. إنها ضربة العمر.. يمكنني بعدها شراء التاكسي الذي أحلم به». رشق الراكب بنظرات سريعة ومتتالية عبر المرآة الأمامية، فوجده مستكيناً هادئاً، وقد انزوى في الجانب الأيمن من الكرسي الخلفي للسيارة، وقد ضمّ شفتيه على إبتسامة شاردة متأرجحة غير مستقرة،

بينما احتضنت ذراعاه دمية (بلاستيكية) كبيرة في حجم طفلة صغيرة، وقد حفظت داخل صندوق من الورق المقوى المزخرف برسوم الأطفال، وفي جانب منه مغطى (بالبلاستيك) الشفاف، كأنه الزجاج، ويكشف بوضوح عن تفاصيل وملامح العروسة اليابانية..

لم يمهله ضميره دقيقة ثانية ليلوك هذه الفكرة الطائشة بين حفر عقله، بل وجّه إليه لكمة قوية ساخنة في محاولة لتبديد برودة الخوف الذي حاق به، وجعل قلبه يضطرب أكثر من مرة منذ بداية هذه الرحلة.. فليل هذا الطريق الزراعي الملاصق للنهر حتى في إنحناءاته وإلتواءاته كثعبان، هو ليل مظلم فحمي مدخن، وعار من أية مصابيح كهربائية.. بينما جذوع الأشجار العجوز الضخمة ترفع فوقها أغصاناً ثقيلة كثيفة، مدّت أعناقها وسواعدها من فوق الطريق لتلتقي مع أغصان أشجار الجانب المقابل من الطريق، وشكّلا معاً قبوا مرتعشاً تتكسر عليه أشعة مصابيح سيارته الأمامية.. وإذا تصادف وسقطت الأشعة فوق مياه النهر عند إحدى المنحنيات اليسارية؛ فإنه يرى في الماء لمعاناً سريعاً ومرعباً، يشبه عيون الشياطين الغرقى، فيقتلع عينيه مبتعداً عنها، ويثب بهما إلى المرآة الأمامية، يتابع خلفه ويرشق

الراكب بغيظ واحتجاج؛ لهذا الصمت الذي دثر نفسه به منذ بداية الرحلة، في إحجام غريب عن التحدث، ولولا أنه سمعه يتحدث ـ حين اتفق معه عند المطار ـ لما شك للحظة في أن هذا الراكب أبكم.. ولكنه وفي مواجهة خوفه من أفكاره الشيطانية بقتله، وكذلك خوفه من الطريق، قرر أن يقتحم على هذا الراكب صمته المصر على الإنكماش داخله.. فاستدار برأسه استدارة خفيفة وغير كاملة، ورفع صوته مستفسراً: ألم نقترب من البلدة بعد يا أستاذ؟!!

لم يجبه الراكب، كأنه لم يستمع إلى سؤاله.. فأعاد السؤال بنبرة أكثر حدة وضيقاً: ألم نقترب بعد من البلد يا أفندي؟!!

انتفض الأستاذ عبد الغني أبو ثروة متضايقاً، كما لو كان السائق قد انتزعه انتزاعاً من فوق رقدته الدافئة على بيوض أحلامه وآماله، التي يستمع إلى طرقات منقارها على جدران عمره، مؤذنة بحلول موعد فقسها، وإستقبالها الحياة التي حلم بها، وخطط لها منذ خمس سنوات.. فوقف مضطراً ـ للحظات عن تحسس هذه الأحلام؛ ليرد على السائق متبرماً:
ـ لا تقلق يا أسطى!!!

شرع عبد الغني يطوح بعينيه المجهدتين في جميع

الاتجاهات؛ علّه يعثر على ما يرشده للمكان الذي تخترقه السيارة.. لكنه ارتد مرة أخرى إلى داخل السيارة بجهل مطبق.. فلم يجد غير بعض كلمات التشجيع والصبر؛ ليقدمها إلى السائق القلق: لا تقلق يا باشمهندس!.. كلها دقائق ونوصل بالسلامة..

ولم يكن إرتياح السائق ـ الذي رطب قلبه ـ بسبب قرب نهاية الرحلة؛ ولكن بسبب إنتعاش الراكب، ويقظته وتخلصه من حالة اللانطق هذه، ولذا قرر أن يمسك بطرف الخيط، ولا يتركه أبداً إلاّ مع نهاية الرحلة؛ حتى يبدد تلك الأفكار الشيطانية التي ضببت خياله لأول مرة.. فعاجل الراكب بسؤال: ألم تخطر أحداً بموعد وصولك يا أستاذ؟!

وهبت نسمات شك وتوجس، احتوت تفكير عبد الغني للحظات، وبعد تردد داهمه بعجب ودهشة: ولماذا هذا السؤال؟!!

ردّ السائق غير مهتم بنبرة الدهشة والتوجس التي شابت الصوت: لا شيء.. إن معظم الأخوة العائدين من الخارج يرسلون إلى أهلهم لإنتظارهم على باب المطار.. ومعهم تاكسي من بلدتهم.. لكنك تخالف العادة!!

هرش عبد الغني بعض شعرات رأسه بسبابته، ثم همس بقلق: لقد أرسلت برقية منذ ثلاثة أيام!!.. ولكن!!.. لم أجد أحداً منهم في إنتظاري!!.. وربنا يستر!!

لحقه السائق مطمئناً: إن شاء الله خير.. لاتشغل بالك.. ربما لم تصلهم البرقية أجابه عبد الغني متمنياً: قد يكون ذلك هو السبب. واصل السائق بإصرار القبض على طرف الخيط؛ فأضاف مؤكداً لعبد الغني: صدقني يا أستاذ لن يكون غير ذلك.. أذكر مرة.. أن صديقاً كان يعمل في بلد عربي، أرسل لي خطاباً، لكن هذا الخطاب لم يصلني إلاّ بعد عام كامل!! تبللت شفتا عبد الغني بابتسامة لسماعه ذلك، وقال معلقاً باحتجاج مازح: بالتأكيد وجدت كلمات الخطاب أكلها العفن. فاضت الابتسامة من بين شفتي السائق، وعقب مؤكداً بدهشة مازحة: أبداً!!.. لقد وجدت كل كلمات وأحداث الخطاب كما هي طازجة! كأنها كتبت لتوها!! وعرفت أنها محفوظة في ثلاجة البريد المركزي..

وانفجر الإثنان في ضحك هستيري مفاجىء.. وهرب النوم والخوف والقلق من حولهما، ومد السائق يده يعبث

بين شرائط المسجل، حتى اختار واحدة، نظر إليه سريعاً في ضوء السيارة الخافت، ثم ألقمه للمسجل؛ وانتبه في حيوية ونشوة إلى الطريق.. بينما عاد خيال عبد الغني يتدحرج إلى تصور فرحة اللقاء الساخن النشوان، الذي سيضمه بعد قليل وزوجته جميلة وإبنته عفاف.. أخيراً يرجع إليهما.. بعد غياب عامين كاملين، قضاهما بين جبال اليمن.. كأنه ضيع فيهما عمره كله.. وتنهد متذكراً كيف كان يعد الأيام شوقاً ولهفة لهذه اللحظة، التي سيعود فيها إلى بيته الدافىء محملاً بالهدايا، التي طلبتها زوجته وطفلته الوحيدة.. ترك يده تنزلق بسعادة فوق الغطاء (البلاستيك) الذي يحمي الدمية الكبيرة التي يحتضنها، وبزغت إبتسامة حانية رقيقة مشتاقة عندما تذكر كلمات عفاف بحروفها غير المرتبة، والتي تسقط منها حرفي الراء والشين.. وكيف انتابته حالة من تحمل المسؤولية، والحنان الجارف، عندما وصله شريط التسجيل مع أحد زملائه الذين سافروا إلى مصر في عطلة الصيف الماضي، بينما قرر هو البقاء في اليمن لكي يوفر ثمن التذكرة.. وفضل أن يحرم نفسه من أحب الأشياء إلى نفسه، وهو رؤيته لأهله.. وذلك حتى يصنع لطفلته ولأخوتها الذين لم يأتوا بعد مستقبلاً مادياً مأموناً.. ويحقق

لزوجته كل ما تحلم به؛ حتى لا تكون في مستوى مادي أقل من أختها التي أعير زوجها إلى الكويت.. وتذكر كيف فاضت عيناه بدموع الشوق والحنان عندما سمع الشريط للمرة الأولى وصوت عفاف في رقة طفلة يتيمة تخاطبه «بابا حبيبي.. كل البنات معاهم بابا.. وأنا مس معايا بابا.. أنا عايزة أغيظهم كلهم.. عايزة أسوفك يا بابا يا حبيبي.. وتستليلي علوسة كبيلة أوى.. أكبل علوسة» وأقسم أن يشتري لها أكبر دمية في اليمن كلها.. سافر إلى صنعاء في أول فرصة ـ رغم أنها تبعد عن المدرسة التي يعمل فيها بأكثر من عشر ساعات! ـ وراح يبحث بين كل المتاجر عن أكبر عروسة، حتى عثر على هذه العروسة، وأقسم له التاجر إن هذه العروسة اليابانية هي أكبر عروسة موجودة في اليمن، وأوضح له وهو يعرى له ظهرها إن لها اسطوانتين صغيرتين يضع أياً منهما في المكان المخصص، وإذا ما ضغط على زر في صدرها؛ فإن العروسة تغني بالعربية أغاني أطفال جميلة، وجربها له.. استمع إليها بفرحة ودهشة.. ولم يساوم البائع ـ على غير العادة! ـ رغم ارتفاع الثمن، وهو المعروف بين زملائه بحرصه الشديد في إخراج القرش، واحتضنها، وعاد بها إلى حيث يقيم مع زملائه في بيت العزاب.. بجوار

المدرسة الإبتدائية التي يعمل بها، وقبل أن يخلع عنه ملابس السفر التي جاء بها من صنعاء، شرع بانبهار شديد، وإعجاب منقطع النظير يقصّ على زملائه روائع التقدم الصناعي الكبير لليابانيين!!.. وكيف أنهم قطعوا شوطاً كبيراً جداً في صناعة الدمى والعرائس للأطفال!! وبحرص وحذر أخذ يخرج العروسة من صندوقها، ثم ضغط على الزر في صدر العروسة، وهو يتابع بعينيه أثر تلك المفاجأ على وجوه زملائه.. وانطلقت الأغنية، وبعد إرهاف السمع للحظات، أغرب الجميع في الضحك متعجبين.. وعندما سألوه عن الثمن، أصابتهم الدهشة جميعاً، وكذبه البعض.. فمن المستحيل أن يتجرأ عبد الغني أبو ثروة، ويغامر بدفع مثل هذا المبلغ، وهو الذي يوبخهم إذا ما اشترى أحدهم شيئاً وكان غالي الثمن.. ولكنه سرعان ما برر تصرفه الشاذ؛ بأنه عند سماع صوت إبنته في الشريط، أحس بذنب عظيم؛ لأنه جعلها تشعر بمرارة اليتم في حال حياته، فاحتقر نفسه، وقرر أن يعاقب نفسه على ذلك، وأن يعوّض إبنته.. ولذلك فقد حلاوة المساومة التي يشعر بها عند الشراء.. وأحس وهو يدفع للتاجر كل هذا الثمن أنه يتخفف من ذنب كبير.. وهتف في زملائه لائماً لنفسه ولهم: ما معنى

أن نوهم أنفسنا بأننا نتغرب من أجل أولادنا وأسرنا لكي نبني مستقبلهم المادي ونحن ـ ودون أن ندري ـ نهدمهم معنوياً.. نحرمهم من كلمة بابا؟!! لقد أحسست بأن ابنتي تحاكمني، وتتهمني بالإجرام في حقها ـ وانخرط في بكاء مر مفاجيء. وأراد أحد زملائه أن يخفف من حالة تأنيب الضمير والحزن التي سيطرت عليه، فقال مازحاً «يا رجل لا تصنع منها محزنة.. قل الحق.. إنك تبكي على هذا المبلغ الكبير الذي دفعته».

التفت إليه عبد الغني، وهو يجفف دموعه التي انهمرت رغماً عنه.. محاولاً حبس كل عواطف الأسى والمرارة التي شبت في أعماقه.. بعد أن فجرها ذلك الطفح التاريخي الذي يختزنه في أعماقه.. مرارة اليتم.. فقد الأب.. الإحساس بالذل والمهانة.. مشاعر الخوف من الآخرين.. كانت أكف العفاريت واللصوص تدق على نوافذ المساء كل ليلة.. حضن أمه التي كانت تلاصقه، لم يكن كافياً لحمايته.. كان يدفس عينيه.. أنفه.. كل رأسه في صدرها.. بين نهديها الفخيمين.. كان في الثامنة من عمره.. لم يكن يشعر بالأمان.. كان يشعر بلذة غير مسماه.. كان يشعر بارتياح عندما ينكمش في صدرها كلما استرق السمع

لأصوات مبهمة في الليل.. فتضمه أكثر إلى أعماقها.. تعتصره بحنان مطمئنة له.. بأن هذه الأصوات التي تتحرك في الطريق ليست إلاّ أصوات الكلاب تلاعب بعضها في ضوء القمر.. لكنه يلتصق بها أكثر مخبئاً كل وجهه بين نهديها هامساً في فزع: لا يا أمي.. إنها العفاريت.. كانت تضحك بدفء مطمئن، وتهمس مؤكدة في صدق: يا حبيبي.. لا توجد عفاريت.. ما عفريت إلا بني آدم.. اقرأ الفاتحة ونم.. ثم تواصل هدهدتها على ظهره حتى ينام.. كان ضوء النهار يمنحه جزءاً من الأمان.. لكن لا يبعد عنه إحساسه العميق بالحرمان.. فارق كبير بينه وبين الأولاد الآخرين.. كل منهم يتكلم كثيراً على أبيه.. عندما كان يشعر بالغيظ منهم.. كان يباهيهم بأمه.. وبأن أمه أيضاً ستصحبه إلى السوق.. ستشتري له ملابس جديدة.. ستشتري له الحلوى.. ستشتري له الطعمية الساخنة.. كان الآخرون يسخرون منه مؤكدين له بأن أمه لاتقدر على الإمساك بالحرامي.. كان أحدهم يفخر بأن أباه «يقدر يضرب العسكري».. كان كل شيء حوله يعمق فيه الإحساس بالحرمان.. حتى النساء في القرية من الجيران والأقارب، كنّ يسهبن في الترحم على أبيه.. وفي

(مصممة) الشفاة تحسراً على حاله ويتمه في هذه السن.. وكم كان قاسياً على نفسه هذا الحزن المفزع الذي كان يراه منسوجاً في جلود وجوههن.. كأنه خوف على أولادهن أن يكون مصيرهم كمصيره هو.. فيتركهن.. كان يهرب منهن.. كان يهرب من أولاد القرية.. مع نفسه يشعر بشيء من الأمان والراحة.. قربه من الناس يذكره بيتمه.. كل واحد منهم يصرّ على تذكيره بأنه أقل منهم.. ينقصه أهم الأشياء جميعاً.. الأب.. واحد منهم فقط هو الذي طيب خاطره عندما حسده على يتمه قائلاً «أنت محظوظ يا عبد الغني لأن أباك مات.. وأمك لا تضربك.. أما أنا فأبي يضربني كل يوم..» كانت تلك هي المرة الوحيدة طوال عمره الطفولي التي شعر فيها بسعادة.. للحظات تخلى عنه إحساسه الدفين بالحرمان.. لكن مع ذلك ظل محروماً طوال عمره من النداء على أبيه كما ينادي كل الأطفال.. نفس الحرمان الذي تقاسيه ابنته عفاف.. وإذا كان القدر هو الذي حرمه من النطق بكلمة أبي؛ عندما مات أبوه شهيداً في حرب اليمن.. فإنه وبإرادته هو، وبرغبة زوجته، يحرمان ابنتهما من كلمة (بابا) تتردد على لسانها كما يرددها الأطفال الآخرون.. لذلك صرخ عبد الغني في هذا الزميل

الذي أراد مداعبته، والتخفيف عنه: لا يمكن لأحدكم أن يشعر بما أشعر به الآن.. لن يوجد بينكم من يحس بأحاسيس إبنتي عفاف.. الإحساس باليتم.. إحساس صعب.. قاسٍ.. أنا فقط الذي أشعر به.. لأني تربيت يتيماً.. عانيت منه.. أنا لا أبكي على المبلغ المدفوع.. إن كل ملايين العالم لا تساوي لحظة إحساس بالحرمان يتعذب لها طفل.. فكيف إذا كان هذا الطفل هو طفلي.

من جديد إندلق في البكاء.. ومن جديد راح زملاؤه يخففون عنه.. مذكرينه بأن عذابه لن يطول.. أشهر قليلة ثم يرجع إلى بيته وزوجته وإبنته.. وأضاف أحدهم مستفزاً: «لقد قررت أن هذا العام هو العام الأخير لك في اليمن.. ومع ذلك.. ومع كل الدموع التي تفيض بها عيناك الآن.. أؤكد لك أنك ستعود إلينا في العام القادم.. وتذكروا كلامي هذا جميعكم.. عبد الغني أبو ثروة الذي يتّهمنا الآن بالإجرام لأننا تركنا أولادنا.. سيكون هو أول من يعود إلى مكاننا هذا في العام الدراسي القادم.. وساعتها أرجو أن تتذكروا ما قلته منذ لحظات أن عبد الغني لا يبكي من أجل إبنته.. ولكن من أجل الثمن الكبير الذي دفعه في لعبة إبنته.. ولأنه لم يساوم البائع كعادته».

واستغل الجميع هذا التبرير من قبل زميلهم؛ للضحك كمخرج موقت للتملص من حالة الكآبة والحزن التي يصر عليها عبد الغني.. وضحك معهم عبد الغني أيضاً مؤكداً بأن هذا الكلام هو محض كلام فارغ.. وأنه أصدر قراراً لا رجعة فيه.. وأنه لن يرجع إلى اليمن مرة أخرى وتحت أي ضغط من الضغوط.. وسارع الزميل يطلب منه ضمانة أمام زملائه على صدق كلامه.. إن كان جاداً في قراره.. فقال عبد الغني بثقة كاملة: يشهد كل الزملاء سيكون لك مني ألف (دولار).. إذا عدت إلى اليمن مرة أخرى.

لم يكن عبد الغني أبو ثروة بالرجل السفيه.. أو حتى بالكريم.. لكي يراهن على عودته إلى اليمن مرة أخرى بألف (دولار).. وهو من قيلت في وجهه أكثر من مرة.. من أصدقائه ومن أعدائه «خلع ضرسك.. أسهل من خلع قرشك!».. لكن قراره الذي قال به أكثر من مرة.. كان قراراً مدروساً بتأن وعقل وعمق.. وتمّ الاتفاق عليه منذ سنتين بينه وبين زوجته وصديقه الوفي كيلاني الغتت.. الذي شجعه على الدخول معه كشريك في محله التجاري.. كان كلما خلا إلى نفسه، وأعاد التفكير في تصرفاته.. وكيف وفق تماماً في استثمار كل (دولار) حصل

عليه من اليمن.. يشعر بسعادة وإنتعاش.. إنه يعتقد ـ بينه وبين نفسه ـ أنه من أكثر العاملين المصريين بالخارج نجاحاً.. فهو لم يقع في أخطائهم نفسها.. لم يضع مدخراته في البنوك الربوية لكي تعطي فوائد محدودة وضئيلة.. ولم يسارع ببناء بيت حجري يبتلع كل شقائه في الخارج، ثم يرجع من جديد ليمضغ الزلط.. لم يضع (دولارات) اليمن في شراء الأجهزة الكهربائية.. (الفيديو والتلفزيون) الملوّن.. لقد فكر بعمق.. إستطاع بعد طول إقناع لزوجته «جميلة» «أن يؤجل شراء مثل هذه الكماليات إلى ما بعد عودته.. إلى ما بعد تنمية مدخراتهم في التجارة. «لماذا نشتري مثل هذه الأشياء من أصل رأس المال؟ لماذا نجعلها تلتهم جزءاً كبيراً من غربتنا؟ لقد عشنا بدونها فترة طويلة.. ماذا لو عشنا بدونها فترة أخرى؟.. ثم نشتريها من أرباح تجارتنا.. كما ترين الجنيه الواحد في التجارة مع كيلاني يربح ربحاً صافياً على مدار العام نصف جنيه.. أي أن الربح خمسون في المائة»... ولم تكن جميلة موافقة في أول الأمر.. لكن مع الوقت والإلحاح المتواصل تمكن من إقناعها.. بل صارت هي التي تشجعه على ذلك.. كما أقنعها بأن شراء الذهب ما هو إلا نوع من أنواع التبديد للثروة.. وبذكاء أمسك

بورقة وقلم، وأحصي لها الربح الذي يعود من شراء الذهب خلال السنوات الخمس التي سيعمل فيها باليمن.. مقارنة بالربح الذي سيعود عليهما من المبلغ نفسه لو أنه أدخل في التجارة.. «الفارق كبير.. الفارق عينه بين السماء والأرض.. فلماذا نبدد الثروة؟؟!.. ومن أجل ماذا؟!.. من أجل مظاهر كاذبة لا أكثر!!».. لم يعجبها كلامه أول الأمر.. لكنها يئست منه.. فاستسلمت بعد أن فشلت معه كل الأساليب حتى البكاء.. كان يشعر بقدرته الهائلة على إقناع زوجته.. في كل نقاش أو حوار كان يخرج منه منتصراً عليها.. وخاصة في إلحاحها في السنوات الأخيرة على الخروج إلى العمل.. حتى تتغلب على الوحدة وحياة الكآبة التي تعتصرها.. لكنه رفض رفضاً نهائياً مذكراً إياها بأنها هي السبب في ذلك.. ولولا إلحاحها في ضرورة سفره إلى الخارج؛ لبناء مستقبل مادي سعيد مثل بقية الناس لما خرجت.. «ولأنها لا تستطيع أن تنكر ذلك.. كانت تصمت.. كانت تقتنع بكل ما أقول».. إبتسم لنفسه بثقة زائدة، وبتقدير.. وهمس مؤكداً: لو لم أفعل ذلك لما استطعت جمع مبلغ كبير مثل هذا في خمس سنوات.. مبلغ خمسين ألف جنيه ليس بالمبلغ اليسير.. لو أنني

أحسنت استثماره داخل مصر.. وسأحسن الإستثمار.. يمكنني أن أتحول إلى مليونير خلال سنوات قليلة.. إن رأسي مليئة بالمشروعات التي تدر ذهباً.. فقط يلزمني فترة محدودة من الوقت كي أصفّي شراكتي مع كيلاني.. إن ربح التجارة لم يعد بالربح المجزي.. هناك عشرات المشاريع.. مشروع مصنع المسامير.. مصنع صغير.. لا يحتاج أكثر من حجرة في بيتنا في البلد.. لكن المكسب الذي يحققه بالضبط لا يقل عن خمسمائة بالمائة.. بينما الماكينة اللازمة لن تحتاج إلاّ إلى مبلغ سبعة آلاف جنيه فقط.. ويمكن لطفل صغير أن يشغلها.. ولماذا طفل صغير؟! أمي.. أمي لم تزل بصحتها.. يمكنها تشغيل هذه الماكينة.. إنها بسيطة جداً.. لقد عاينتها بنفسي منذ عامين عندما كنت في عطلة الصيف.. فكرت في شرائها.. لكنني عدلت.. أجلت الشراء لحين العودة نهائياً.. مثل هذه المشروعات لا تنجح إلا في وجود صاحبها على رأسها.. هناك مشروع أكثر ربحاً.. مكسبه لا يقل عن ألف في المائة.. الماكينة التي تصنع (بسكويت الجيلاتي).. نعم هي غالية الثمن.. كان سعرها في العام قبل الماضي حوالي العشرين ألف جنيه.. قد تصل الآن ومع ارتفاع الأسعار إلى خمسة وعشرين ألف جنيه..

لكن مكسبها كبير جداً.. يمكنها أن تسدّد ثمنها في أشهر الصيف.. وهي أيضاً لن تحتاج إلى مكان كبير.. يمكن وضعها في بيت أمي بالبلد.. لكن في هذه الحالة سأكون مضطراً إلى شراء سيارة نصف نقل.. نعم.. نصف نقل حتى أعتمد عليها في إحضار المواد الخام.. كذلك في تسويق المنتجات سواء في المدينة أو في المدن والمحافظات المجاورة.. أنا أعرف أنني سأتعب في أول الأمر.. لكن المكسب والنجاح مضمونان.. خلال سنوات قليلة سأرتاح، سأفكر في إنشاء مصنع نسيج، سأبدأ به متوسطاً ثم أنميه.. ساعتها ستكون عندي (المرسيدس) (والفيلا).. سنعيش أنا وجميلة وعفاف وأولادنا حياة الرفاهية.. سأشدد على أمي لكي تعيش معنا، وتترك البلد.. آن الأوان لكي يكون إسمي حقيقة وواقعاً.. أكون أبا ثروة.. أبا الملايين.. يومها سأرشح نفسي لعضوية مجلس الشعب.. سأتبرع للمساجد أمام الناس من زكاة المال.. سأبني مدرسة أو مدرستين تهرباً من الضرائب.. كما يفعل الجميع.. سأحصل على أصوات الناخبين.. في يوم من الأيام سيكون عبد الغني أبو ثروة قدوة لكل الشباب.. وربما يكتب عني مثلما كتبوا عن طلعت حرب.. أنا لا أقل عنه.. لقد كنت متفوقاً في

دراستي.. كنت أسمع بأذني أهل القرية يسخرون من أولادهم، ويعيرونهم بي «ألا تخجلون من أنفسكم.. أبن الأرملة يتفوق عليكم كل عام».. أولاد الكلب.. لا يذكرون إسمي إلا مقروناً بابن الأرملة.. كأنما صار عاراً أن يموت زوج المرأة شهيداً.. بدلاً من احترامي وتمجيدي لأنني إبن شهيد.. يحقرونني لأن أمي هي التي ربتني.. رفضت الزواج من كل الرجال الذين تقدموا للزواج منها.. كانت يومها في عنفوان شبابها.. في قمة حرارتها الجسدية، واحتياجها إلى رجل.. ومع ذلك رفضت الجميع، وأعلنتها صراحة للجميع.. «لقد تزوجت إبني عبد الغني.. سأضعه في عيني، وأتكحل عليه.. سأسهر عليه وأربيه؛ حتى يصير رجلاً تخجل العيون إذا ما رأته».. ولم أخيب رجاءها وأملها.. لقد حققت نجاحاً في دراستي حتى حصلت على دبلوم المعلمين، وعملت مدرساً بالقرية.. يا حبيبتي يا أمي.. كيف حالك الآن؟ منذ شهرين لم تصلك مني رسائل.. كنت أكتب لك الرسائل ولكن لا أجد من أرسلها معه ليلقيها في أقرب صندوق بريد.. أرجو أن أراك بخير وبصحة جيدة.. غداً.. سأذهب إليها في صباح الغد.. سأستريح الليلة مع جميلة وعفاف.. أعترف أني قصرّت

كثيراً بحقها.. لكن آن الأوان لكي أعوّضها من حرمانها مني.. من أول ربح لماكينة المسامير سأجعلها تخرج لأداء فريضة الحج.. وسأجعلها تدرك أن صبرها لم يضع هباء.. عندما تراني ذات يوم في قمة المجتمع.. سأجعلها تفخر أمام الجميع بأنني إبنها الذي رفضت كل رجال الدنيا من أجله و.....

أوقف صوت السائق هذه الرحلة الشاسعة بين جنبات حياته كلها.. ماضيها ومستقبلها.. وذلك عندما سأله مستفسراً: أعتقد هذه هي المدينة يا أستاذ؟

في لحظة استرد عبد الغني نفسه، وعاد بها إلى حيث يكون الآن.. داخل السيارة التي تقله من المطار إلى بيته.. وأن تلك الأضواء التي تتقدم نحوه مرحبة ومعانقة ليست إلا أضواء الأعمدة الكهربائية التي تستقبل القادمين والغائبين عنها من أبنائها.. سرى في كيانه إحساس بالبهجة.. امتد برأسه مقترباً إلى حد كبير من النافذة.. يتأمل بدهشة هذا التغير الذي طرأ على مدخل المدينة.. همس بصوت مسموع، كأنه يتعمد أن يشاركه السائق في دهشته: هل هذا معقول؟!!.. غياب عامين فقط.. يحدث فيهما كل

هذا التغيير.. هل تصدق يا أسطى.. كل هذه العمارات العالية لم تكن موجودة منذ عامين؟!

وبدلاً من أن يتعجب السائق من العمارات الجديدة.. إنتابته دهشة أخرى وهو يسمع منه أنه لم يأتِ إلى مصر منذ عامين.. سأله مستغرباً: أنت متزوج يا أستاذ؟!!

لم يستوعب عبد الغني مبعث الدهشة في سؤال السائق، فأجابه بينما كانت عيناه تتسابقان في متابعة واحتواء كل هذه التغيرات.. أبنية جديدة نظيفة كأنها شقت الأرض وخرجت لتوها.. معارض بيع السيارات والأدوات الكهربائية انتشرت على جانبي مدخل المدينة.. معظمها أغلق أبوابه تاركاً أضواء (النيون) تتراقص في انسجام الكتروني مع بعضها البعض.. أقدام متعبة تحمل فوقها أجساداً مرهقة ووجوهاً شاردة ممتقعة تتحرك في طريق عودتها إلى المأوى.. كان معظمهم يرفعون العيون إلى أعلى السيارة بضيق وحقد.. ثم يتمتمون بكلمات مبهمة ويتبعون ذلك بالبصق في وجه الأرض.. واحد فقط من الشباب الصغير هو الذي لوّح لهما بيديه محيياً ومهنئاً على سلامة العودة.. انتبه إلى أنه لم يجب عن سؤال السائق فقال كأنه

يستدر عطفه: نعم.. وحرمت نفسي من أسرتي طوال العامين.. من أجل لقمة العيش.. غمغم السائق في شبه سخرية: كان الله في عونك وعون زوجتك!!

ويبدو أن دهشة السائق وسخريته قد اقتربتا أخيراً من وعي عبد الغني الغائص في أعماق سعادته بالعودة إلى مسكنه الذي يقترب منه.. فقد التصق الدعاء الساخر بأن يكون الله في عون الزوجة.. بجدران مشاعره ثم نفذ إلى أعماقه ليهزها.. عامان بعيداً عن زوجته.. من أجل لقمة العيش؟!!.. أية لقمة عيش هذه التي تفرق بين المرء وزوجته؟!.. لم أكن أصدق في يوم من الأيام أنني أستطيع البعد عن جميلة ليوم واحد.. عامان؟!!.. في أول الأمر اعترضت أن بشدة على الفكرة.. رفضتها كلية.. بكت هي بحرقة واحتراق، صاحت وهي تغالب دموعها: «لم أكن أعرف أن البعد يستطيع أن يقسي القلوب هكذا.. يوم أن سافرت أول مرة كنت تبكي لفراقنا.. ترددت كثيراً قبل أن تتخذ قرار السفر.. لم تسافر إلا بعد أن قررت قراراً نهائياً بأنك سترسل إلينا أنا وابنتك؛ لكي نعيش معك في اليمن.. ثم ذهبت.. بعد شهرين أرسلت تعتذر متعللاً بصعوبة المكان الذي تعمل فيه.. كما لو كنت لا تعلم آدميين يعيشون في

المكان نفسه.. وتقبلت اعتذارك واعدة نفسي بالذهاب معك عندما تعود في عطلة الصيف.. واعتذرت.. عاماً بعد آخر.. ويوماً بعد يوم تبرد مشاعرك من ناحيتنا.. حتى وصلت بك إلى نقطة الصفر.. تريد أن تتغيب عنا لعامين كاملين؟!.. لا نراك فيهما؟!.. ولا ترانا؟!.. لم يعد لدي أي شك في أن عاطفتك تجاهنا قد انطفأت نهائياً» حاولت إقناعها بأن البعد أكثر قسوة عليّ منها.. أنا أعيش معذباً بين الجبال.. أسوأ حياة.. وأسوأ طعام.. كل أحلامنا كوابيس.. لكنني أتحمل كل ذلك من أجلها هي، ومن أجل أطفالنا.. وذكرتها بأنها صاحبة فكرة السفر.. وبأنني لم أكن في يوم من الأيام أفكر في السفر لولا إلحاحها.. فزاد تدفق دموعها، وهي تؤنب نفسها بأنها هي التي أضرت نفسها، وجنت على حياتها الزوجية.. وطلبت مني البقاء.. يكفينا ما حققته في الأعوام السابقة من المال.. ولم أكن بقادر على إقناعها بوجهة نظري هذه، لولا تدخل صديقنا كيلاني الغتت وزوجته.. لكنها اقتنعت على مضض في أول الأمر.. ولكن الزمن كان كفيلاً بإقناعها بسلامة منطقي وقوة حجتي.. حيث ظهر ذلك من خلال خطاباتها التي كانت ترسلها لي بعد سفري.. كانت تشجعني على البقاء في اليمن؛ حتى

يتسنى لنا جمع أكبر مبلغ ممكن.. حتى نبدأ في أي مشروع تجاري أو صناعي أو نقف على أقدامنا بقوة وسط هذا المجتمع الذي لم يعد يحترم غير الأغنياء.. كنت أقرأ رسائلها وأنا أحلق في أجواء من السعادة.. ليس لأنها اقتنعت بوجهة نظري ورغبتي في البقاء في اليمن لعامين متتاليين أوفر فيهما تذكرة السفر والهدايا.. لكن لأنها صارت تتحدث بكلامي نفسه.. بمنطقي نفسه ووجهة نظري.. حتى الفلسفية التي كنت أرددها لها كلما حاولت إقناعها بأية فكرة «لا خير في لذة يعقبها؛ ألم.. والخير.. كل الخير في ألم يعقبه لذة».. صارت هي الأخرى تكتبها في كل خطاب؛ حتى تمنحني الصبر على تحمل هذا الألم والمرار في غربتي.. كانت سعادتي تتضاعف كلما وقعت عيناي على أفكاري تعتمد عليها في سطور رسائلها.. أشعر بمدى تأثيري القوي عليها، حتى وأنا على بعد آلاف الأميال.. كنت أزداد منها قرباً وحباً على البعد.. أحياناً كثيرة كنت أحسد نفسي؛ لأنني وفقت في زواجي.. مثال للزوجة العاقلة.. لقد آن الأوان لكي أعوضها من كل يوم بعاد.. حقاً كان الله في عونها.. لقد صبرت كثيراً.. سأعوضها من الليلة.. ستكون الليلة ليلة جميلة.. وما إن همس بذلك لنفسه حتى تخيل نفسه معها

في السرير.. وشرعت الموجات تلو الموجات من العواطف تضرب كل أعضاء جسده فتدغدغها.. وتسري في أنحائه القشعريرة اللذيذة.. وتذكر تشكيلة قمصان النوم الفخمة التي أحضرها معه.. هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يخبر به زملاءه في سكن العزّاب.. اشتراها في اليوم نفسه الذي اشترى فيه الدمية لعفاف.. لكنه يعتبر مثل الأشياء سراً خاصاً بين الرجل وزوجته.. لذلك دسها في قاع الحقيبة؛ حتى لا تصل إليها أية يد غريبة.. فهو يعتبر أن ملابس زوجته الداخلية عورة.. كأنها جزء من جسد زوجته.. وتخيلها وهي ترتدي القميص «البيج».. وصدرها الناهد يثب نحوه في لهفة وشوق ملتاع.. شعرها الذهبي بوهجه الشمسي المحترق يتماوج في نعومة وإثارة على كتفيها وظهرها.. عيونها الخضراء النابضة بالحيوية والشهوة تدمع حزناً على أيام مرت دون أن تراه.. وهتف بإخلاص وصدق: لا بد أن أعوضها من كل دقيقة غياب.. سأعوض نفسي.. آن لي أن أكفر عن ذنوبي.. من حوالي شهر واحد فقط أقلعت عن ممارسة العادة السرية.. سأرد ديني.. سأعود إلى إنسانيتي من جديد.. لم يكذب زميلنا مدحت صقر عندما قال «إن اليمن تحولنا إلى قردة.. كلنا نمارس العادة

السرية بعيداً عن زوجاتنا.. وكل منا ينكر ويقسم أنه لم يمارسها طوال حياته.. لقد تعلمها الإنسان الأول من القرود في الغابات.. نسيتها القرود.. وتمسكنا بها نحن.. المال أساس هذا الدمار الذي نعيش فيه.. نترك زوجاتنا.. نترك حلالنا.. ونأتي هنا لننكح أيدينا!! ونجمع المال».. وبالطبع أنكر كل منا أنه يمارسها.. بل إن أحدنا إدعى بأن هذه أول مرة يسمع فيها عن العادة السرية.. ولكن كل منا كان يعلم أن ما يقوله مدحت هو الصدق.. لكن هل يجب أن يصدق الإنسان في كل شيء؟!.. ولذلك كنت أشعر بالتأنيب في أوقات كثيرة، كان ينتابني فيها إحساس بالزهد.. وتضرب رأسي أسئلة كثيرة «لماذا نفرط في حياتنا المضمونة الحالية بسهولة.. في مقابل حياة مستقبلية غير مضمونة؟!!.. لماذا نجمع المال اليوم لكي نستمتع به في أيام مقبلة قد لا تأتي؟!.. أو لأولاد قد يكونون عاقين لنا وفاسدين.. أو قد يكون رزقهم أوسع من رزقنا نحن» ولكن سرعان ما كانت تتبخر كل هذه الشطحات، عندما كان يصلني خطاب من شريكي كيلاني الغتت يزف إليّ بشرى تحقيق ربح كبير في صفقة أقمشة مستوردة.. ويطلب مني المزيد من (الدولارات) للدخول في صفقة أكبر مضمونة..

ولكن ها قد مضت كل الأيام المرة.. حان لأيامنا الحلوة أن تعوضنا من أيام الشقاء والحرمان.. سأبدأ من الليلة.. ستكون الليلة ليلة جميلة.. سرت في جسده القشعريرة من جديد.. مد رأسه مقترباً من السائق هامساً له في رجاء: من فضلك يا أسطى لا تطلق بوق السيارة.. حتى لا تزعج الجيران.

استدار السائق استدارة خفيفة ليغمز بعينه مبتسماً: أنا عارفك مشتاق.. وعايز تأخذ الليل من أوله.

ضحك عبد الغني موضحاً بكذب: لا.. فقط حتى لا نزعج الناس في هذا الوقت المتأخر من الليل بدون داع..

هز السائق رأسه بمكر ضاحكاً: تحت أمرك يا عريس.. الليلة ليلتك.. كان الله في عونكما.. سنتان!!..

توقفت السيارة أخيراً بهدوء تام.. دون ضجيج.. أمام العمارات العالية التي أشار إليها عبد الغني موضحاً للسائق بهمس، كأنه يطلب منه بطريقة غير مباشرة أن يفعل مثله، ويتحرك بصمت شديد، ودون جلبة؛ حتى لا يشعر أحد من سكان العمارة بمقدمه: هنا يا أسطى.. في الطابق الثاني.. الحمد لله على السلامة.

أجابه السائق بصوت خافت، كأنه قد استوعب رغبة

عبد الغني: الحمد لله على سلامتك.. ثم أطفأ السيارة، وفتح بابها هابطاً منها بخفة وحيوية.. كأنه لم يقد السيارة لتلك الفترة الطويلة، أو كأنه اعتاد على شقاء الجري فوق الطرقات.. شد قامته مرتفعاً برأسه إلى سطح السيارة متنقلاً بعينيه بين حقيبة وأخرى.. بينما كان يمد يده متحسساً أول الحبل الذي ثبت به الحقيبتين فوق شبكة السيارة.. بهمة وسرعة ويد مدربة أخذ يجذب طرف الحبل منتزعاً إياه من بين العقدة التي عقدها بنفسه عند المطار.. في الوقت عينه الذي هبط فيه عبد الغني من باب السيارة منتشياً، تعتمل بداخله عشرات العواطف المتباينة... ما بين المد والجزر،كانت تتألق في أعماقه شهوة جنسية مجنونة، يبدو أنها انتفضت فجأة من بين ركام الصبر.. وجه زوجته الصبوح بعينيها الخضراوين المفعمتين بالرغبة والحنين.. صدرها المتفجر بالرغبة والتحنان.. بشرتها الناعمة الملساء كصابون ناصع البياض .. ظهرها العاري.. شعرها المتوتر الحائر ما بين كتفيها الممتلئين المندلقين فوق تضاريس صدرها، وظهرها البض الطري الرطب.. كان يغشى مخيلته في موجات متتالية، بينما كان يثب صاعداً السلّم إلى شقته محتضناً عروسة ابنته.. تمنى بقوة أن تكون ابنته نائمة.. ردد

كلام السائق منتشياً «الليلة ليلتك يا عريس».. الدفء الشبقي البركاني الذي يعتري كل جسده يجعله يشعر بأنه أقوى رجل على ظهر كوكبنا.. قرر أن ينتزع زوجته من فوق الأرض بمجرد أن تفتح له الباب.. سيحملها بين ذراعيه كطفلة مهما زاد وزنها.. لن يستحي من أحد.. لن يستحي من إبنته.. لن يستحي من السائق إن لحقه، سيطوف بها الشقة.. سيلقيها على السرير.. تمنى من جديد أن تكون ابنته نائمة، أو عند جدتها.. سيعوّض كل أيام الحرمان.. شعر بتفاهة كل ما جمعه من أموال مقابل لحظات اللذة والمتعة بين أحضان زوجته.. عزم على تطبيق كل ما شاهده في أفلام الجنس التي كان يطلعهم عليها صديقهم اليمني على (الفديو).. كان يحضرها معه كلما أتى من إحدى دول الخليج التي يعمل بها سائق تاكسي.. كانواينتظرونه في بيت العزاب بشوق كبير.. كان يتخيل نفسه وزوجته في كل مشهد.. تذكر كلام صديقهم اليمني، بينما كان يخزن القات، وهو يتابع معهم الفيلم غير مصدقين لما يقع أمام أعينهم «لم تخلق المرأة إلا لهذا.. الجنس وفقط.. كل منطقة في جسدها تنبض بالإحساس الجنسي.. المرأة لا تحترم زوجها ولا تحبه لأنه أمير أو وزير.. لكنها تحترم فيه

فقط قدرته على الإشباع الجنسي.. كم سمعنا عن زوجات لرجال كبار في السلطة والمال هربن مع العبيد والخدم!!..»
.. لكنه لم يفعل مثلما فعل زملاؤه من المتزوجين.. لم يذهب إلى الصيدلية في العاصمة، ويشتري المراهم والدهانات التي تثير حيواناتهم وتكسبها الشراسة والقوة.. هو لا يقتنع بأية وسيلة من هذا النوع.. يخاف من تأثيرها السيىء عليه مستقبلاً.. ثم إنه ليس في حاجة إليها.. كان يمارس العادة السرية بشراهة.. خاصة في تلك الأيام التي كان يحضر فيها صديقهم اليمني في عطلة، ويطلعهم على أفلام جنسية جديدة.. أحياناً كان يمارس العادة السرية خمس مرات يومياً.. لكنه عمل بنصيحة أحد الزملاء المجربين «كي تتأجج الرغبة الجنسية لديك إلى زوجتك.. عليك بالامتناع عن ممارسة العادة السرية قبل سفرك إليها بشهر على الأقل.. ستعود إليها كعريس جديد في العشرين».. منذ شهر لم يمارسها.. الشعاع الذي يخرج من شراعة شقته التي وصل إليها يصافحه.. يحتضنه.. يصيبه بخدر جنسي.. راح يبتلع لعابه، وقد أدرك أن زوجته وصلتها البرقية؛ وتنتظره ساهرة حتى الآن.. دق الباب دقات خافتة مرحة.. بينما كان وجيب قلبه المتدفق بالمشاعر

الساخنة يكاد يسمعه الجيران.. بعد لحظات فتح الباب.. صافحه وجه أمه الباسم المهنيء المشتاق.. شعر بالنيران التي تتأجج في أعماقه يتخافت لهيبها.. السنتها التي كانت تطاول الشمس منذ لحظة أخذت في الإضمحلال والتقزم شيئاً فشيئاً.. كان محتاجاً لوقت طويل كي يروّض أحاسيسه الملتهبة التي جاء بها.. لكن المفاجأة لم تمنحه الوقت.. لم يستطع السيطرة على ملامح الدهشة التي اجتاحته عندما رأى أمه.. أدرك أنه صدمها بدهشته، لكنه في الحال هلل مرحباً بأمه التي احتوته بذراعيها.. في لحظة أعادته طفلاً صغيراً.. راحت تقبله بشوق جارف.. للحظة أحس بالحياء منها.. انكمش في أحضانها.. انشغل بقتل أحاسيسه الساخنة.. راح يفرز في كل كيانه مشاعر من نوع جديد، لم يكن مهيأ لها من قبل.. لكن دفء الأمومة.. رائحة عرق أمه التي كانت مختزنة في أعماق الذاكرة استيقظت الآن.. سرى بينهما حنان نقي.. راح يحتضنها بشوق حقيقي، ويقبل يديها، ويحمد الله على سلامتها، وبأن أولى أمنياته من الله أن تكون هي أول من يقابله.. وهكذا يحقق الله أمنيته.. قال ذلك بينما كانت عيناه وأذناه تتوغلان من فوق كتفي أمه إلى أعماق الشقة باحثتين

بإصرار وتوجس عن أي أثر لوجود زوجته وابنته بالشقة.. لكنه لم يسقط علي أي دليل يطمئنه إلى وجودهما بالشقة.. لم يجد بداً من أن يتملص من بين ذراعي أمه منزلقاً إلى داخل الشقة منقباً عن الزوجة والإبنة بعينيه وأذنيه.. رفع صوته الممتزج بالتوجس والبهجة منادياً عليهما.. لم يجبه أحد.. ارتد إلى أمه كالمصعوق، وصرعها بسؤال: أين جميلة وعفاف؟!!

ترددت للحظات.. بدت كما لو كانت تكد في البحث عن عبارة مناسبة.. تقنعت بابتسامة عريضة محاولة منها لطمأنة وحيدها الذي هرب الدم من عروقه، واعترت ملامحه أحاسيس الفزع والضياع.. لكن ابتسامتها المفتعلة لم توفق في توصيل الرسالة إليه.. كانت ابتسامة شاحبة تنطوي على أسى وسخط.. لذلك أدت إلى تضخم مشاعر الرعب لديه.. اقترب منها، أعاد السؤال بتوتر وقلق: أين أسرتي يا أمي؟!!.. ألم تصلكم البرقية؟!!

هتفت الأم بأنفاس لاهثة، وبعبارات حملت في طياتها معنى التأنيب: اطمئن يا حبيبي.. زوجتك وإبنتك بخير.. ولكن..

وقبل أن تكمل بكلمات مترددة متلكئة.. شعرت بمقدم السائق الذي كان يحمل الحقيبة على كتفيه، وتعمد أن يحشر نفسه بالباب للحظات حتى يستطلع المكان، ويرشق بنظراته في أرجاء الشقة ممنياً نفسه برؤية تلك الزوجة التي غاب عنها زوجها.. كان يسيطر عليه فضول جامح لرؤية زوجة لم تمارس الجنس منذ عامين.. كيف سيكون استقبالها لزوجها.. لكن أمله ارتد خائباً، وتملكه امتعاض عندما لم تقع عيناه إلا على هذه المرأة العجوز.. «لا يمكن أن تكون زوجته.. لا شك أنها أمه» لم ييأس من سماع صوتها.. تقدم داخلاً الشقة.. انتبه إليه عبد الغني.. لم يكن قد تمكن من إخفاء مشاعر القلق والتوتر.. التقطها السائق من فوق أسارير وجهه المنقبضة المتشنجة.. أدرك السائق كل الأمر في لحظة.. أيقن أن شيئاً خطيراً قد وقع في غياب هذا الخائب.. فتنهد صائحاً: الحمد لله على سلامتك يا أستاذ..

التفت إليه عبد الغني دون أن يطالع وجهه.. هز رأسه ودفع يده في جيب (بنطلونه).. أخرج رزمة من أوراق العملة المصرية.. راح يعد منها.. انتزع خمسين جنيهاً وناولها إلى السائق الذي التقطها منه وراح يعدها بعده.. وبسرعة مد يده بها إلى عبد الغني هامساً بصوت غاضب:

خلي الفلوس يا أستاذ.. والحمد لله على سلامتك..

انتبه إليه عبد الغني دهشاً مستغرباً: ألم نتفق عند المطار على مبلغ الخمسين جنيهاً.. لماذا تعترض إذن؟!!

أوضح السائق بنبرة متظلمة بأنه لم يكن يعلم أن البلدة بعيدة عن القاهرة بهذه المسافة.. وأنها المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا.. كتم عبد الغني غيظه.. مد يده إلى السائق بعشرة جنيهات زيادة على الخمسين جنيهاً.. انتزعها السائق من بين يديه.. اندفع خارجاً من الباب دون أن يشكره بكلمة واحدة.. أوصد عبد الغني خلفه بعد أن مد عنقه خارج الباب ليتأكد إذا ما كان أحد من الجيران قد استيقظ وشعر بمجيئه.. الكل يغط في نوم عميق.. أسرع إلى أمه.. لم تتركه يعيد عليها السؤال.. كانت فرصة طيبة دخول السائق.. تمكنت من ترتيب كل شيء في ذهنها.. قالت بإخلاص وصدق: اطمئن يا بني.. زوجتك وابنتك بخير.. لكنهما لا يعلمان بمجيئك..

قاطعها غير مصدّق: كيف؟!!.. ألم تصلكم البرقية؟!!

ردت الأم وقد بدا عليها أنها التقطت أنفاسها، واستردت هدوءها الذي فقدته في أول الأمر: يا حبيبي

(التلغراف) وصل.. أحضره لي الجيران في القرية صباح اليوم.. لأن زوجتك في زيارة إلى بيت أهلها.. والدها مرض.. انتهزت فرصة أن عفاف في إجازة واصطحبتها معها منذ أربعة أيام.. وأنت تعلم أن بلد أهل زوجتك بعيدة.. لا أستطيع الذهاب إليها كي أخبرها.. لذلك فكرت في فتح الشقة.. لأنها كانت تترك المفتاح عند الجيران تحسباً للظروف..

كان يواصل النظر إلى ملامح أمه بتركيز شديد محاولاً تحليل وتبرير تلك الأحاسيس التي تواريها وتتحفظ عليها تحت تجاعيد وجهها التي بدت غائرة عن ذي قبل.. مط شفته السفلى في غير اقتناع، ثم همس بصوت مفعم بالشك: أواثقة يا أمي بأنه ليس هناك أمر خطير قد وقع لجميلة أو لأبنتي عفاف؟!!

اختنقت أمه بالدموع، وهي تهتف مؤنبة إياه؛ لعدم ثقته فيما تقول: يا بني صدقني.. ماذا جرى لك؟!.. هل علمتك الغربة القسوة؟.. حتى على أمك؟!.. لم تعد تصدق لي كلمة!!.. تتهمني بالكذب!!.. فقط استرح الآن.. غير ملابس السفر هذه.. اغتسل وتناول طعامك.. لم يبق على

النهار غير ساعات قليلة.. يمكنك أن تذهب إليهما في بيت أهلها بنفسك، وتحضرهما.

لم يجبها عبد الغني، ولم يعر تأنيبها المفتعل أي اهتمام.. ظل للحظات طويلة مطبقاً شفتيه على الخوف والتوجس، ولم تفلح كلمات أمه في تهدئة العواصف التي اجتاحته، وأخذت تمزق تفكيره، وتشتته في أنحاء متفرقة.. لم يعد قادراً على استنباط أو استنتاج فكرة معينة.. حتى أحاسيسه ومشاعره أصبحت متناثرة متناقضة.. لم يعد قادراً على التركيز في أي شيء.. هو واثق تماماً أن أمه تخفي شيئاً خطيراً.. لكنه يعرف أمه جيداً.. لن تقول به إلا في وقت معين.. هز رأسه، وهو يتذكر أن زوجته لم ترسل إليه خطاباً واحداً منذ ثلاثة شهور.. لم يكن قلقاً من قبل.. لأن البريد لم يكن منضبطاً في توصيل الرسائل.. هل الموضوع هو مجرد مرض صهري وذهابها إليه؟!! هل حدث مكروه لابنته عفاف؟!.. هل ماتت؟!.. هبت عليه موجات متدافعة من الرعب والحزن.. نظر إلى أمه في توسل: عفاف بخير يا أمي؟

ضربت أمه كفا بكف مستنكرة هذا الشك الذي يسيطر

عليه: يا بني.. والله العظيم.. صدقني.. زوجتك وابنتك بخير وصحتهما جيدة جداً.. لماذا هذا القلق والشك؟!! تنهد تنهيدة طويلة مليئة بالمرارة ثم هزّ رأسه بعنف عدة مرات، كأنه يجتهد في تنفيضها من عناكب الشك والتوجس التي نسجت بيوتها، واختبأت داخل رأسه وبين شعر رأسه..

انتبه إلى أنه لم يزل محتضناً عروسة عفاف تحت إبطه منذ أن نزل بها من السيارة.. دار ببصره فيما حوله باحثاً عن مكان مناسب يضعها فيه حتى الصباح.. فكر في أن أفضل الأماكن جميعاً هو فوق الدولاب.. أخذ ينتزع قدميه متقدماً إلى حجرة النوم حيث دولاب الملابس، بينما عيناه الزائغتان وذهنه الشارد لا يساعدونه على التوجه الصحيح والمباشر إلى باب الغرفة.. إتجه أولاً بالعروسة إلى باب الحمام، ثم ارتد عائداً إلى حجرة النوم.

بينما وقفت أمه تتابع خطواته المتراخية، وملامح وجهه المتداعية.. مار صدرها بعواطف الخوف على إبنها، والحقد على زوجته، والتوسل إلى الله أن يساعد إبنها على تحمل الموقف، ويخرج منه بسلام.. غافلها أنين اندفع من صدرها

الذي يغلي منذ الصباح.. همست لنفسها بلوعة وحسرة «لقد استطعت حتى الآن الكذب عليه؛ لتخفيف وقع المصيبة.. لكن إلى متى سأستمر في ذلك؟!.. النهار لم يبق عليه غير ساعات قليلة.. سيذهب إليها.. سيعرف الحقيقة.. وحتماً سيصدم.. هل أتركه يصدم هناك؟.. في بيت أبيها.. هل أصارحه بالحقيقة من هنا أفضل؟.. حتى أكون بجواره وأخفف عنه.. ولكن كيف سأمهد له؟ كيف أخبره بأن زوجته تركت له البيت غاضبة مصممة على الطلاق؟.. كيف سأخبره بأن زوجته كانت موجودة.. وهي التي تلقت (التلغراف) واستلمته بنفسها، وهي التي أرسلت إليها، وأحضرتها كي تسلم لها الشقة بمحتوياتها أمام الجيران!!.. جعلت من الجيران شهوداً!!.. فضحته أمام الجيران مدعية بأن إبنها البخيل تركها، وسافر منذ عامين دون أن يترك لها غير مائة جنيه فقط.. لم تكفها للصرف على البيت ولا على إبنته غير شهر واحد فقط.. اضطرت بعدها إلى اللجوء إلى أبيها.. استدانت منه.. إلى أن خجلت من أهلها.. اضطرت إلى الخروج للعمل عن صديقهم كيلاني الغتت.. ولولاه لخرجت للتسول كي تطعم ابنته.. وعندما سألتها دهشة، وعاتبة لماذا لم تلجأ إليها هي أمه.. بدلاً من أن تلجأ

إلى الغريب؟!.. أطلقت ضحكة ساخرة أمام الجيران مدعية بأنها تعلم حالها.. وتعلم أنها تعيش على الصدقات التي يقدمها لها المحسنون.. فكيف ستنفق عليها؟!.. لحظتها أدركت أمه أن هذا الغضب مفتعل.. وأن طلبها الطلاق ليس بسبب البخل كما تدعي وتلفق لإبنها ولها.. لكن بإحساس المرأة تيقنت أن غضبها هذا وإصرارها على الطلاق وراءه رجل آخر.. لكن من هذا الرجل؟! وإلى أي مدى وصلت العلاقة بينهما في غياب زوجها؟!.. وأدركت الآن السبب الحقيقي من هذا الخلاف الذي افتعلته معها دون مبرر منذ عام، وخاصمتها وقاطعتها تماماً.. رافضة أية وساطة للصلح بينهما من قبل الأهل.. وهمست لنفسها لحظتها: كان عليّ أن ألمس كل ذلك دون أن يخبرني أحد.. إن مظهرها قد تغير تماماً.. لم تعد كما كانت تخجل، أو تستحي من الآخرين.. كلماتها تخالطها بجاحة، وكذب لم يكن موجوداً فوق لسانها من قبل.. لم تعد تستر نفسها، ولا تغطى شعر رأسها كما كانت.. تركتها، وذهبت منذ الصباح بعد أن أشعلت نيران الخوف والحقد.. كيف سيجتاز إبنها هذه المصيبة؟!.. إنه يحبها.. لقد سافر من أجلها، كي يجمع المال.. ترك عمله، لم يهتم

بفصله من وزارة التربية والتعليم.. دفعته لأن يزور جواز السفر.. خالف رغبتي لأول مرة من أجل إرضائها.. تحمل البعد عن إبنته عفاف من أجلها.. ثم تأتي الآن وتلوف برجل آخر» أحست بالسخط والإزدراء والإحتقار ناحية زوجة إبنها الجاحدة.. ناكرة الجميل.. عديمة الأصل.. تمنت أن تمنح سلطة الحكم على الناس.. لحكمت عليها في الحال بالإعدام شنقاً.. أمام كل نساء الأرض؛ حتى تكون عبرة وعظة لكل زوجة خائنة حقيرة.. إنها لم تعرف الهم الحقيقي إلا منذ أن دخلت هذه المرأة في حياة إبنها.. إجتاحها فيضان مفاجىء من الذعر والرعب على مستقبل ولدها، فندت عنها آهة مستعرة، وارتجفت أطرافها، وأفلت الطبق الذي كانت توشك أن تغرف فيه العشاء.. سقط على الأرض.. أحدث صوتاً مفاجئاً اهتزت أعماقها له.. انحنت بسرعة فوقه.. التقطته، وقد سرى في عروقها مزيج من التوجس والقنوط.. رفعت ظهرها، وهي تتمتم جاهشة: إنها اليمن مرة أخرى.. منذ سنوات خطفت مني الزوج.. واليوم تحاورني وتداورني مصممة على خطف الإبن.. رفعت عينيها إلى الله هامسة بدعاء باك: يا رب فوضت أمري إليك.. عندما أخذت زوجي شهيداً فوق جبال

اليمن.. حدثني الجميع عن ثواب الصابرين.. فصبرت.. واحتملت.. صارحتك يا رب يومها بأنني سأصبر مقابل أن تحفظ لي عبد الغني.. أتوسل إليك يا رب لا تضرني فيه.. إنه نور عيني.. إنه قلبي.. إنه روحي لا تخذلني يا رب.. أنت الوحيد الذي تعلم أنني لم أرتكب معصية في يوم من الأيام.. تخليت عن متعة الفراش مع رجل بعد المرحوم من أجله.. لا أطلب منك يا رب غير أن تبقيه لي حياً، وإذا كان موته محتوماً، فاجعل أجلي قبل أجله.. أنا لا أحتمل أن أعيش حزن فراقه.. انفجرت في بكاء مروع.. خافت أن يراها إبنها.. أسرعت إلى البصل، وأمسكت بسكين وراحت تقطع بصلة بحجة عمل السلاطة.. حتى تبرر انذراف دموعها أمام إبنها برائحة البصل.

وإن استطاعت أم عبد الغني العثور على مبرر منطقي ومعقول، لتدفق دموعها تفريجاً عن نفسها التي ثقلت بأحزانها.. إلا أنها لم تستطع منع ذكريات الهم التي مرت عليها.. وكأن إحساسنا بالهم هو بمثابة المغناطيس القوي الذي يجذب ويلملم كل الأحزان والهموم الفائتة.. فهي لم تزل تذكر ذلك اليوم.. عندما كان عبد الغني في الثامنة من عمره.. كان يلهو ويلعب في الشارع.. أمام باب الدار..

كان صوته الجميل يكلم حمامة الجيران تقف فوق سطح الجيران.. كان يغني لها أغنيته الجميلة التي اعتاد عليها «يا حمامة.. يا حمامة.. هاتي أبويا بالسلامة» كانت الدنيا قد انتهت لتوها من فصل الصيف.. السحابات الجديدة المتطايرة في سعادة كانت تعبر سريعة في السماء «كنت أتابعها من ساحة الدار غير المعروشة، بينما قلبي يردد مع عبد الغني أغنيته الأثيرة ـ لقد أحسست بالوحشة والحرمان الحقيقي لغياب زوجي.. دعوت الله لحظتها أن يعود إلينا من اليمن قبل حلول الشتاء.. حتى يتمكن من ترميم سقف البيت، وطلس السطح، وتسليك المزاريب قبل هطول الأمطار. وكذلك يحضر زراعة المحصول الشتوي» لقد ذاقت المر والعذاب في بعده.. في وجوده لم تكن تشعر بأية منغصات.. لكنه منذ أن ذهب إلى اليمن، منذ ستة شهور شعرت بالتعب، والذل الحقيقي.. مرة تتذلل إلى أخيها؛ حتى يحرث لها الأرض.. وأخرى تتوسل إلى الجيران من أصدقاء أبي عبد الغني لكي يبذروا البذور.. لكن في وجود محروس زوجها كان يغنيها عن كل ذلك.. حتى وهو في الجيش.. كان يحصل على إجازة لمدة أسبوع كل شهر على الأقل.. كان يوالي فيها المصلحة.. لكن الآن غيابه قد

طال.. وليل الشتاء طويل.. ويا ليت النساء من أهل القرية، والأقارب الذين يحسدونها مقدماً على عودة زوجها محملاً بأموال اليمن، كما عاد بعض الجنود في القرى المجاورة محملين بالأموال اشتروا بها الأرض وعجول التسمين.. وتحولوا في طرفة عين إلى أغنياء يمتلكون الأرض والماشية، فضلاً عن أن الحكومة وعدتهم بالعمل كموظفين في إحدى المصالح الحكومية.. يأخذ مرتبه وينام.. ويشرف على زراعة أرضه.. يعني الخير سيأتي إليهم من كل صوب.. ليتهم ذاقوا ليلة واحدة من ليالي البعد.. إن عيونهم الحاسدة تترصد لشيء لم يأت بعد.. هكذا هم الناس في قريتنا.. لم ينطفىء لهيب الحقد والحسد في قلوبهم أبداً.. حتى عندما جاء شيخ الخفراء إلى الدار، يسأل عبد الغني الذي يواصل أغنيته لنحمامة عن أمه وعن خاله.. واصطحبنا معه إلى دار العمدة، حيث وجدنا بعض الضباط قدموا لنا العزاء في استشهاد محروس زوجي..لا لم يرحمنا أهل القرية.. قالوا الحكومة أعطتها آلاف الجنيهات تعويضاً عن زوجها.. تهامست النساء فيما بينها ومتنبئات بالرجل الذي سيقع عليه اختياري للزواج منه بعد محروس.. تقدم الكثير.. لكنني رفضتهم جميعاً.. وأعلنت للجميع «أن زوجي لم

يمت.. إنه ما زال حياً.. الذي خلف لم يمت.. إنني سأحيا لعبد الغني.. ولن أسمح لرجل آخر أن يحتل فراش أبيه» ومرت بها الأيام والسنون.. كانت صادقة فيما قالته.. رفضت الزواج.. ربطت حزاماً من التيل المتين حول وسطها؛ حتى يصلب ظهرها ويقويه.. خرجت بنفسها إلى قطعة الأرض الزراعية التي تركها محروس.. كاتفت الرجال في زراعتها وريها في أواسط ليالي الشتاء الباردة الموحشة المظلمة المدلهمة.. حتى لا يضيع عليها الدور في الري.. لم يكن معها من مؤنس غير رجلها الصغير عبد الغني.. كان يصاحبها حاملاً المصباح الكيروسيني بشعلته التي تتراقص وتتوهج وتخبو أمام هبات الريح.. كانت تحادثه ويحادثها؛ حتى يدفعا عن نفسيهما الخوف ويشعرا بالأمان.. نذرت نفسها لتربية عبد الغني وتعليمه.. يوماً بعد يوم كان يزداد أملها توهجاً ولمعاناً كلما نجح عبد الغني من سنة دراسية إلى أخرى.. عندما حصل على شهادة الإعدادية العامة من مدرسة القرية انداحت فرحتها وسعادتها حتى شملت كل الدينا.. ها هو الصبر يحقق الأمل.. شكرت الله لأنه لم يخذلها.. استجاب لدعائها وتضرعها المستمر من أعماقها أن يبارك لها في عبد الغني مكافأة لها على صبرها لفراق

زوجها.. لأول مرة يسمع أهل القرية ضحكتها الصافية الرائعة منذ أن استشهد زوجها في اليمن.. أحست يومها أن كل شيء في الدنيا يمكن الحصول عليه بالصبر.. خسرت رجلاً في حرب اليمن.. لكنها ها هي تزرع رجلاً جديداً.. منذ شهور أخذ يودع سنوات الطفولة.. لم يعد يسمح لها بمساعدته في الإستحمام، وتدليك جسده، وتنظيف ما بين فخذيه.. آخر مرة تملص منها في خجل، وهو يقول لها مبعداً يديها عن محل ذكورته.. أنا سأنظف نفسي.. أنا لم أعد طفلاً صغيراً.. أنا رجل.. ضحكت يومها بملء رئتيها وقلبها.. ولو كانت السعادة توصف بحجم لكان الكون كله أكثر ضآلة من حجم سعادتها.. أجابته إلى رغبته شريطة أن ينظف ما بين فخذيه جيداً.. ويركز على حك قدميه بالحجر.. وعليه أيضاً أن يهتم بنظافة ما حول رقبته وتحت أذنيه، وكذلك يديه مرددة له المثل الشعبي الذي تذكره به دائماً قبل الإستعداد لدخول الحمام «من غسل إيديه ورجليه بان الحموم عليه».. بعدها أخذ يبتعد عنها في نومه.. قرر أخيراً أن ينام منفرداً في الغرفة المجاورة.. كان صوته قد أخذ يكتسي بخشونة صوت الرجال مختلطاً بصياح الصبية وبدأت شعرات رقيقة تتناثر بغير انتظام حول

ذقنه وتحت أذنيه وفوق شفته العليا.. كانت تبدو لها كنباتات شيطانية نمت في أرض ملحة.. كانت تداعبه قائلة وهي تتعجل رجولة إبنها وكثافة لحيته.. لماذا لا تضع سماداً وكيماوي حول لحيتك؛ كي تصح زرعتها وتكبر.. كانت تطاول الشمس لفرط سعادتها عندما يطلب منها جلباباً جديداً؛ لأن الجلباب القديم قد صار قصيراً بالنسبة لجسده الذي انطلق في النموالسريع كعود الذرة الشامية.. كانت دائمة النظر إليه.. تتأمله في انبهار وإعجاب بلا حدود.. إنه يشبه أباه في أشياء كثيرة.. لونه الأسمر.. طوله الفارع.. شعر رأسه الأسود الأكرت.. طول أهدابه كثافة حاجبيه.. حتى النحافة أخذها عن أبيه.. كانت تشعر في أعماقها بالفخر والغرور لأنها أنجبت هذا الرجل.. كانت تتأكد كل يوم يمر بها أنها كانت على صواب عندما رفضت الزواج، ولم تستجب للمغريات من الرجال والنسوة اللاتي كن يخفنها من المستقبل في هذه الحياة الشاقة بدون رجل «انتهزي فرصة شبابك وجمالك وتزوجي.. ألف رجل يتمنى تراب رجليك.. أنت صدرك ونهداك يتمنى أن ينام عليهما الباشا.. أنت الوحيدة التي تمتلكين عينين خضراوين في القرية» لم تستمع إلى كل هذا.. كانت تغلق أفواههن

بكلمة واحدة «أنا تزوجت عبد الغني.. هو عندي أحسن وأجمل من أي باشا». كانت تشعر بالسعادة والخوف كلما نجح.. عيون الناس الحاسدة لا تتركها في حالها.. كلما نجح تسمعهم يقولون «أم عبده امرأة لكنها تساوي مائة رجل.. صانت نفسها، وربّت إبنها أحسن تربية.. كل سنة ينجح.. عمره ما سقط ولا سنة واحدة.. كل سنة ناجح من الأوائل» كانت تركض إلى الملابس القديمة، وتمزق منها قطعة، وتأخذ بتشريطها ذاكرة أسماء كل الذين تتوقع منهم الحسد لأبنها.. هامسة في أسى «الكعكة في يد اليتيم عجبة».. لكن الهم الأكبر الذي طحنها حتى البكاء هو هذا الكلام الذي قاله لها ناظر المدرسة الإعدادية وسط المهنئين لها يوم نجاح إبنها في الإعدادية العامة.. وبينما كانت توزع سعادتها على الجميع مع أكواب الشربات في بيتها، قال لها كأنه يبارك لها، ويدعو لها بتحقيق أمنية طيبة بدخول عبد الغني الجامعة «مبروك يا أم عبد الغني.. إن شاء الله كلها ثلاث سنوات وعبد الغني يحصل على الثانوية العامة ويدخل الجامعة في القاهرة..» ارتعشت يداها لحظتها عندما سمعت هذا.. اقشعر كل بدنها.. ثلاث سنوات وتفقد إبنها.. يذهب إلى القاهرة.. يعرف زميلة له.. يتزوجها.. لن

يعود إلى أمه مرة أخرى.. تفقد الرجل الثاني.. هل هو محتم عليها أن تفقد رجالها؟!.. لم تتحمل صدمة كلام الناظر.. تدفقت دموعها فجأة، وهي تتخيل مدى المصيبة التي قد تحل بها.. مصمص الناس شفاههم إشفاقاً على حالها، أولوا بكاءها في يوم نجاح إبنها بتفوق على أنه الفرحة الطاغية.. أو أنها تذكرت أباه المرحوم شهيد اليمن.. ولم يدر أحد منهم لحظتها أنها قد اتخذت قراراً مصيرياً للإحتفاظ بإبنها عبد الغني بجوارها مدى الحياة.. نفذته في يوم تقديم الأوراق.. إذ اصطحبت عبد الغني إلى معهد المعلمين بالمركز.. قدمت أوراقه.. اشترت له دراجة.. ظل يذهب بها ويعود لمدة خمس سنوات حتى أنهى الدراسة بالمعهد وهو أمام عينيها.. لا يغيب عنها.. تعد طعامه.. تشاركه في الوجبات الثلاث اليومية.. تغسل ملابسه.. تعد له الشاي بين وقت وآخر طوال فترة الإستذكار.. كانت تمتحن معه بكل آحاسيسها ومشاعرها.. كانت تنقم مثله على من وضع امتحان مادة الجبر بهذه الصعوبة.. كانت تفرح لأن مادة التاريخ جاء امتحانها في غاية السهولة.. كان قلقها على ظهور النتيجة يفوق قلقه هو.. كانت تعيش أيامه هو وحياته هو، بجانب حياتها.. إلى أن جاء ذلك

اليوم الذي أشرقت فيه أكبر شموس حياتها.. يوم أن حصل على دبلوم، معهد المعلمين.. كانت فرحتها الكبرى.. وتأكدت بعدها بأسابيع أن الله يكافئها حقاً على صبرها، وذلك عندما تسلم عبد الغني عمله كمدرس في المدرسة الإبتدائية بالقرية نفسها.. وهتفت في نشوة وسعادة لنفسها «لن يغيب عبد الغني عني إلى الأبد».. يومها طلب منها أن ترتاح.. لا تخرج إلى الغيط أبداً إلا للنزهة فقط.. إنها الآن أم الأستاذ، لم يعد لائقاً بها أن تعمل كما كانت من قبل.. شعرت لحظتها من جديد أنها لم تخسر شيئاً لعدم زواجها بعد وفاة زوجها.. كانت على صواب يوم قالت إنها تزوجت إبنها.. ها هو يمارس عليها سلطة الزوج.. يأمرها بالراحة والبقاء في البيت والإحتجاب عن التعب والأنظار.. نظرت إليه ملياً.. راحت تتأمل ملامح وجهه بتقديس وانبهار.. كأنها تتعبد في محراب.. أهذا هو عبد الغني الطفل الصغير؟!.. قطعة اللحم الحمراء التي انزلقت مني باكية ذات مساء شتوي؟!.. أهذا عبد الغني الذي كان يجري في طرقات القرية متفخذاً لجريدة نخيل متخيلاً أنها فرس يلهو به ويسابق الريح؟!.. أهذا هو إبني الصغير الذي كان يدفس وجهه في صدري خوفاً من العفاريت؟!.. ها

هو قد صار رجلاً آمراً ناهياً.. لم تنتزع عينيها من فوق محياه الجميل إلا بعد أن سرى في كيانه إحساس بالخجل والإحراج، وجفلت عيناه برموشه السوداء الطويلة.. وهمست في طاعة كاملة كأنها ابنته الصغيرة وبحب شديد «أمرك سينفذ يا حضرة الأستاذ.. من الآن لن أخرج من باب الدار إلا بعد إذنك وموافقتك» ضحك يومها، وقال «لا يا أمي.. العفو.. لم يصل الأمر إلى هذا الحد.. لم أطلب إلا راحتك.. وأن تتركي الشقاء.. كفاك ما لقيته من عناء وتضحية من أجلي.. أنا مقدر لك كل هذا.. ولو عشت طوال عمري أسدد لك هذا الدين لما استطعت و..» قاطعته معاتبة وهي تضع أناملها فوق شفتيه؛ حتى لا يكمل كلامه «ماذا تقول يا حبيبي؟ .. أنت أبني وحياتي.. لم يكن هنا عناء أو مشقة.. كنت أشعر بالمتعة وأنا أمارس واجبي كأم.. ما فعلته أنا هو ما تفعله كل أم.. وأنا عندما خرجت إلى الغيط إنما أردت تربيتك من مالك ومال أبيك.. لا نمد يدينا طالبين الصدقة أو زكاة المال من أحد.. من أجل هذا اليوم.. حتى تظل طول عمرك مرفوع الرأس.. يدك فوق الجميع.. وليس لأحد فضل عليك ولا جميل إلا لله رب العالمين.. لكن الآن أستطيع أن أبقى في بيتي مرتاحة

فرحانة، أتفرغ لخدمتك ورعاية مصالحك مؤدية لفروض الله.. حتى تأتي بنت الحلال التي ستأخذك مني..» يومها انتفض مستنكراً هذا الكلام.. رافضاً إياه بكل شدة.. أقسم بأن هذا لن يكون أبداً.. وأنه لن يتزوج إلا من تختارها هي بنفسها.. وأن زوجته ستأتي لتعيش معها كخادمة لها هي قبل أن تكون خادمة له.. وأن كلمتها ستكون نافذة عليها.. وإلا فلن يتزوج..

مكثت في البيت.. أصبح هو رب البيت والمتصرف في كل شيء.. لكنه لم يكن يتخذ قراراً أو أمراً إلا بعد مشورتها أولاً.. وبعد الحصول على موافقتها، يبدأ في التنفيذ.. في تلك الأيام، عاشت أجمل سني عمرها على الإطلاق.. كان يطربها أكف التلاميذ الصغار، وهم يدقون على باب الدار سائلين عن الأستاذ؛ لكي يعطيهم الدرس.. كانت تفيض بها السعادة عندما ترفع صوتها رادة بالتحية على زملاء عبد الغني من المعلمين الذين يأتون لزيارته في الدار.. شعرت بأنها صارت من السيدات المهمات في القرية، تفرغت للواجبات الإجتماعية.. لا بد أن تجامل في الأفراح والمآتم والمناسبات المختلفة.. وإلا كان العتاب عليها شديداً من أهل القرية.. كانت تغمرها السعادة أكثر عندما

كانت بنات الجيران اللاتي كن في عمر الزواج تتدافعن لخدمتها، أو تقديم خدماتهن لأم الأستاذ متعللات بأي مبرر لرؤية أم الأستاذ والإطمئنان إليها؛ لأنهن يشعرن تجاهها بالحب العميق، ويقسمن لها بأنهن يحببنها أكثر من حبهن لأمهاتهن.. وتضحك أم الأستاذ مغتبطة سعيدة، وهي تدرك أن هذاالحب ليس لها.. إنما هو للأستاذ.. وهي لا تمانع في ذلك بل تتمناه.. كانت تتمنى أن يتزوج عبد الغني واحدة منهن.. وصارحته بذلك في إلحاح أكثر من مرة مبدية رغبتها وشوقها لرؤية أولاده ومداعبتهم.. حتى إذا جاءها الموت تموت وهي مرتاحة مطمئنة إليه.. لكنه كان يتملص منها في كل مرة.. كان يزعم بأنه غير مستعد للزواج الآن.. وأن أمامه الكثير ليفعله قبل الزواج.. ولا بد أن يعوضها من أيام الشقاء التي مرت بها.. ولم تفلح في إقناعه بالزواج.. ليته استمع إلى كلامها، واستجاب إلى إلحاحها.. ليته تزوج واحدة من بنات الجيران.. لو أنه أطاعها في ذلك الأمر وحده لما وقعت عليهم تلك المصائب.. لكن لو لم تعد تفيد بشيء.. إنه النصيب.. القدر.. لو كانت تعلم أن زيارته إلى زميله المريض في محافظة أخرى هي التي ستفعل كل هذا بها وبه لمنعته من الزيارة.. لحالت بينه وبينها مهما كلفها

ذلك.. ولكن للأسف.. استجابت لرغبته يومها وأعدت له زيارة فخمة؛ كي تكبر به أمام أهل زميله المريض.. أعدت له سلة كبيرة ملأتها له بالأرز الأبيض والجبنة والزبدة والبيض الطازج الذي دفعته داخل علبة من الصفيح مليئة بالدقيق؛ حتى لا يتكسر، بالإضافة إلى ذكرين من البط البلدي الكبير.. رفض أن تذبحهما.. اكتفى يومها بأن تُربط أرجلهما، وأن يتركا حيّيي أفضل.. معللاً ذلك بأن منظرهما وهما بريشهما أجمل وأكثر فخامة.. والمسافة بالسيارة التي استأجرها خصيصاً لهذه الزيارة لن تستغرق ساعتين حتى تصل.. ويومها وعد أمه بأنه سيذهب للزيارة والإطمئنان إلى صحة زميله، ويعود في اليوم نفسه.. لن يتأخر.. لكنه لم يف بوعده لها لأول مرة.. كانت تعد له الساعات منذ أن تحركت به السيارة من أمام البيت في الصباح.. توقعت عودته مع العصر.. لكنه لم يأت، طمأنت نفسها بأنهم قد أغلظوا عليه وتناول معهم الغداء، ولذا فهو سيأتي مع آذان المغرب.. لكنه لم يأتِ حتى آذان العشاء.. وكانت ليلة من أسود الليالي في حياتها، كان ظلام الليل يزحف إلى كل أعضائها بكل ثقله.. كان يمزقها، ويضغط على صدرها المفعم بالأرق، ويعتصر رأسها الذي أوشك أن ينفجر من

زحمة الظنون السيئة.. والخوف والفزع تجمعوا حولها وحدها.. إنها المرة الأولى التي ينام فيها خارج البيت.. لم يفعلها من قبل.. كانت ترفض اشتراكه في رحلات المدرسة أو المعهد؛ حتى لا يبيت فيها خارج الدار.. حتى يوم ذهابه إلى التجنيد لإجراء الكشف الأول الذي قدم فيه كشف العائلة، وأثبت فيه أنه وحيد أمه الأرملة! حتى يعفى من الخدمة العسكرية، عاد في نفس اليوم وبات في الدار.. ويبدو أن الشكوك والظنون وجدتها لعبة لذيذة، راحت تتسلى بها طوال الليل.. لم تغمض لها جفناً واحداً باكية مرة.. داعية مرة.. صار شغلها الشاغل هو مراقبة ضوء الصباح الأول الذي يقتحم عليها الحجرة من خلال الشقوق الملازمة لضلفات النوافذ من فترة بعيدة.. حتى إذا أطل عليها ضوء الصباح، نهضت لصلاتها.. ثم فتحت باب دارها متوجهة إلى بيت ناظر المدرسة في القرية نفسها، تسأله عن عنوان زميله المريض؛ لكي تذهب إليه باحثة عن إبنها الذي بات لأول مرة خارج داره.. ورغم أن الرجل هب من نومه المبكر فزعاً على إثر طرقات أم عبد الغني الملهوفة إلا أنه اضطر أن يضع على وجهه ابتسامة مطمئنة، وهو يتثاءب ويفرك عينيه في محاولة منه لإيقاظ نفسه من

النوم.. أشفق على قلقها، وطالبها بأن تهدأ، وتتذرع بالصبر حتى آذان الظهر.. وإذا لم يرجع عبد الغني.. فسوف يذهب هو بنفسه إلى زميله المريض ممدوح، ولن يعود إليها إلا به.

لم يطل إنتظار أم عبد الغني حتى الظهر ـ كما وعدها ناظر المدرسة ـ فلقد وصل إبنها يسبقه صفير ناعم حالم، يخرج متماوجاً من بين شفتيه.. لم يهتم كثيراً بتلك اللهفة التي قابلته بها أمه مؤنبة وسائلة إياه عن سبب الغياب والتأخير.. بل سلم عليها بشوق وحنان شديدين زاعماً أن أهل زميله ممدوح قد أقسموا عليه أن يبيت عندهم.. فبات وهذا كل ما في الأمر.. لم تشأ أمه يومها أن تحوّل الموقف إلى تأنيب شديد وعتاب مر.. بل ابتلعته، وحمدت الله على سلامته.. وشرعت تسأله، وهي تجلس قبالته تطالع وجهه الذي حرمت منه لمدة يوم وليلة «وكيف حال زميلك ممدوح» رد عليه مبتهجاً «الحمد لله.. مثل القمر.. صحته جيدة» انتبهت إلى هذه الإجابة غير المألوفة.. تسأله عن صحته فيقول إنه مثل القمر!!.. لكنها تجاوزت ذلك، واصلت سؤالها محاولة اكتشاف هذا السر الغامض وراء سعادة إبنها وارتياحه «أهله ناس طيبون؟» لم ينتظر حتى

تكمل سؤالها، بل تدفقت الكلمات من فوق لسانه بإخلاص وصدق كنهر منحدر لا تعترضه شلالات «هؤلاء الناس يا أمي بلغوا حد الكمال في الكرم والأخلاق والأدب والتقوى ومعرفة الأصول.. والإحتشام و..»

وقاطعته دهشة «ألم تقل إنهم يعيشون في مدينة؟!!» فرد عليها ضاحكاً مستغرباً «وهل يتنافى هذا مع ما قلت!!.. ليس كل أهل المدن بلا أخلاق.. معظمهم من أصل ريفي.. لكن ظروف العمل فرضت عليهم السكنى في المدينة.. يسكنون فيها، ويحتفظون بتقاليدهم».

وبعد أن سادت لحظات صمت غير متوقعة عندما توقفت أم عبد الغني عن التعليق.. تكلم عبد الغني فجأة وبدون مقدمات وبشكل حماسي لا رجعة فيه «أعتقد يا أمي أنه قد آن الأوان لكي نهتم ببيتنا هذا.. يجب أن نهتم بتأثيثه.. سأبني دورة مياه.. سأدخل فيه مياهاً نقية بدلاً من هذه الطلمبة.. سأقوم بدهانه بالأسمنت.. سأركب البلاط في الأرضية..» وواصل معدداً ومحدداً كل التغييرات التي سيقوم بها.. وقوى في نفس أمه الإعتقاد بأن هذا الإندفاع لترميم الدار والإهتمام بالأثاث وراءه دافع قوي.. حاولت

أن تخمن بينها وبين نفسها ما هو.. ولكنها لم تشأ أن تجهد نفسها في التفكير والظن فسألته «وما الداعي لكل هذا التغيير المفاجىء».

تعثر إبنها للحظات بحثاً عن الداعي الذي تسأل عنه أمه ثم قال متلعثماً «هل نسيت يا أمي أنني أصبحت الآن معلماً بالقرية.. ومن الواجب.. أن أهتم بمسكني.. ربما.. ربما.. فرضت علي الظروف أن أستقبل أحد الغرباء بمسكني.. مثل.. مثل الموجه الذي يأتي المدينة.. قد يستدعي الأمر أن أستضيفه مثلاً لتناول الغداء.. أو قد تمطر الدنيا وتنقطع المواصلات فيضطر للمبيت عندي..»

لم يكن لديها أي شك في أن إبنها لم يفض إليها بالحقيقة.. وأن الدافع وراء التفكير في التجديد يحتفظ به.. لا يجب أن يطلع أحداً عليه.. ولذلك لم يكن أمامها غير الظن والتخمين لتعرف السبب.. خمنت أن هذا التغيير الدافع خلفه هو امرأة ولذا داهمت إبنها بسؤال مفاجىء «زميلك ممدوح.. له أخوات بنات؟»

إرتج على عبد الغني شمله.. الجمود والصمت لفترة.. شرد كمن يفتش عن إجابة مناسبة ترضي جميع الأطراف..

ثم أسفر هذا الصمت عن ابتسامة واسعة وتوهج وجهه الأسمر بالخجل والإرتباك كفتاة عذراء، ثم همس إلى أمه كأنه يشكو لها لوعته وحرقته «عنده يا أمي أخت بلغت حد الكمال في الجمال والأدب والأخلاق.. إنها تشبهك يا أمي.. العيون الخضراء والقد الممتلىء.. العقل الرزانة.. في كل شيء.. في كل شيء..»

ولم تدر أمه ساعتها أي المشاعر تتقاسمها هل هو إحساس بالفرحة لأن إبنها يفكر في الزواج.. أم تحزن لأن إبنها قد شق عصا الطاعة لأول مرة ويقبل على مخالفة رأيها بالزواج من واحدة من وحدة من بنات الجيران أو حتى من بنات القرية التي يعرفونها ويعرفون أهلها «لكن هذه الغريبة.. لا تعرف شيئاً عنها.. من أهلها؟.. ما هو أصلها؟.. لا أحد يعرف عنها أي شيء.. مجرد شكلها أعجبه.. ولكي يغريني بحبها مثلما يحبها يرشوني بالإدعاء بأنها تشبهني إلى حد كبير.. وما علاقة الشكل بالطباع!» لذلك همست إلى إبنها في حكمة وجد: يا بني.. المثل يقول «حلاوة المرأة في طبعها».. ولم يعبأ بحكمة أمه.. ولم يعبأ كثيراً بتلميحاتها ثم بتصريحاتها في أن الخير له أن يفكر في الزواج من واحدة من بنات القرية.. ومع الأيام استطاع البوح

بمكنونات نفسه لأمه وقال لها بصراحة ودون خجل «إنني أحبها.. ولن أتزوج غيرها»..

انزعجت الأم.. ولم يكن الإنزعاج بسبب أنه سيتزوج هذه الفتاة بالذات ولم يتزوج واحدة ممن اختارتهن له من بنات القرية.. لأن الذي يعنيها أولاً وأخيراً هو سعادة إبنها أينما كانت.. لقد ضحّت بعمرها من أجله.. فهل يضنيها أن تضحي برغبتها في زواجه من فتاة بعينها؟.. وما أدراها.. فقد تكون هذه الفتاة التي اختارها هي وحدها التي ستكون معها دون غيرها سعادته.. وقد يكون الله وحده هو الذي هيأ الأمور ورتبها وجعل من مرض زميله سبباً في التعرف إليها، حتى تكتمل سعادة إبنها، ويصير ذلك مكملاً لتعويض صبرها خيراً.. لكن الذي أزعجها حقيقة هو هذا التغير الذي طرأ على سلوك إبنها حيالها.. فمن قبل تلك الزيارة كان يسألها رأيها أولاً فيما سيفعله.. كان لا يقدم على عمل أي شيء قبل أن يأخذ رأيها وموافقتها.. كان يردد دائماً أن رأيها بركة لا يمكن التصرف في أي أمر دون الحصول عليها.. لكنه الآن بدأ يتخذ قراراته، وينفذها دون الرجوع إليها.. كان يخبرها فقط من باب العلم بالشيء.. كانت الحيرة تنتابها من وقت إلى آخر، هل تسعد لأن إبنها

صار رجلاً يتخذ قراراته بنفسه؟ .. أم تأسى على حالها، وتحزن لأن العد التنازلي لفقدها لإبنها قد بدأ..لا لقد فقدت أباه وصبرت من أجل هذا الرجل الثاني.. ولكن هذا الرجل الثاني شرع يتسلل مبتعداً عنها.. إنه يسير في طريق بعيد عن طريقها.. إنه يتوجه صوب امرأة أخرى بكل إصرار وتصميم وسرعة.. لم يضع الوقت.. ففي خلال أسبوعين كان قد أتم إصلاحات البيت التي قال بها من قبل.. وأنشأ دورة المياه الجديدة.. وها هي اللمبات الكهربية قد أحالت اللمبات الجاز إلى التقاعد والإستيداع في غير أسف وحولت ليل المنزل الرمادي إلى ضوء شمس مبهر.. ولم تخفِ أمه فرحتها وسعادتها وهي ترى بيتها وقد تحوّل إلى قصر أو سرايا.. وخاصة عندما ركّب له البلاط في الأرضية.. لم يعد هناك أي فارق بينه وبين العمدة.. ولم يتوقف طموح إبنها عند هذا الحد.. بل انتبه إلى تأثيث الدار بأثاث يتناسب مع المظهر الجديد للدار.. فذهب إلى نجار القرية واتفق معه على صنع ثلاث كنبات على وجه السرعة.. في الوقت نفسه الذي طلب فيه من أمه أن تجمع حولها بنات الجيران لكي تبذر كمية من القطن الموجود في نصف الكيس في حجرة الخزين.. وتنظف القطن وتضعه في الشمس، لأنه

اتفق مع المنجد الذي سينجد الكنب بعد أسبوع.. ودفعت فطنة أهل القرية الذين رأوا كل هذا التطور وهذا النشاط غير العادي في بيت الأستاذ إلى التنبؤ بأن الأستاذ ينوي الزواج في وقت قريب.. فهم اعتادوا في القرية أن الإهتمام بمظهر الدار والأثاث لا يكون إلا عند انعقاد النية على الزواج.. وطرح السؤال الفضولي الكبير نفسه عليهم.. من هي سعيدة الحظ التي ستكون من نصيب الأستاذ؟.. وأمه تتجاهل أي سؤال داعية أن يحقق الله ظنهم ويتزوج إبنها ويرتاح قلبها وتربي أولاده..

قررت أم عبد الغني أن تحتفظ بإبنها بطريقة ذكية.. قهرت أنانية الأم فيها.. أمسكت زمام الأمور بيديها من جديد.. انتظرت إلى أن فرغ إبنها من كل التغييرات والتجديدات، وقالت له كأنها تأمره من مركز القوة والإقتدار «متى سنذهب إلى بيت زميلك ممدوح لنخطب لك أخته؟».. ولم تندم في يوم من الأيام على أنها قالت ذلك.. ولم تندم حتى عندما أهانتها وأغضبتها بعد الزواج، لأن السعادة التي رأتها تشب من عيني إبنها لحظتها وكذلك هذا الكم الهائل من الفرحة التي أريقت فوق ملامح وجهه.. تعادل عندها بل تزيد بكثير عما رأته من عذاب

بسبب هذا الزواج.. يومها.. قال الكثير وأفاض في شكره لأمه والإمتنان لها وهتف في رجولة حاسمة كما لو كان يأخذ على نفسه عهداً لن يرجع فيه «أعدك يا أمي بأنها ستكون لك خادمة في هذا البيت.. ستكون لك مطيعة طوال العمر»

في الحال استنكرت أمه كلامه هذا قائلة في شبه تأنيب «لا تقل هذا أبداً.. إنها ستكون إبنتي.. سيكون حناني وحبي لك هو حناني وحبي لها.. ستكون في عيني وفي قلبي»

وتمت الخطبة.. ومرت أسابيع ترفرف السعادة في كل مكان في بيتها.. كانت تمتع نظرها برؤية إبنها يتحرك في خفة وحيوية العاشق المحب.. كان كل كلامه غناء.. يشعر بالرضا الدائم.. كان يقبل يديها في الخروج وكلما عاد من عند خطيبته.. كان يكرر لها «أن علم النفس لا يخطىء يا أمي.. لقد درسنا في علم النفس في معهد المعلمين أن الطفل دائم الميل إلى أمه.. حتى إذا ما كبر وصار رجلاً وأراد الزواج فإن اختياره يقع في الغالب على فتاة تكون قريبة الشبه من أمه.. ولم أصدق هذا يا أمي إلا بعد أن

عرفت جميلة وخطبتها».. كانت تمازحه أمه قائلة «إياك أن تنسى نفسك وتعود معها طفلاً صغيراً وتخبىء وجهك في صدرها وتقول لها أنا خايف من العفاريت!» وينفجر الإثنان في الضحك عندما يتذكران أيام الطفولة الحلوة.. ومرت الأيام سعيدة هانئة دون أن تعكرها أية منغصات إلى أن عاد عبد الغني ذات مساء راجعاً من عند خطيبته محملاً بأكياس وأطنان من الهم والبؤس.. كان مكسور الخاطر لم يقبل يد أمه كعادته.. لم يعد يطلق صفيره الناعم الحالم المتماوج كما كان يفعل في كل مرة.. خلع حذاءه وجلس بملابس سفره.. لم يفكر في خلعها وارتداء جلبابه.. أُخذ قلب أمه وهي تطالع وجهه المليء باليأس والقلق والتجهم.. أقبلت إليه.. جلست بجواره.. صمتت لحظة وسحبت نفساً طويلاً قبل أن تسأله عن سبب هذا التجهم والإكتئاب.. دعت الله بألا تكون هناك مصيبة لا تقدر على حلها.. تمهل قبل أن يزفر بحنق واستنكار ثم همس بأن جميلة خطيبته تضع شرطاً واحداً لإتمام الزواج.. هو أن تسكن في المدينة.. ترفض العيش في القرية.. طلبت أن أستأجر لها شقة في المدينة.. قال ذلك ورفع عينيه ليرى أثر هذا الكلام عليها.. لكنها في الحال نكست رأسها ومبتعدة بعينيها التي اندفعت

إليهما الدموع لتلك الطعنة.. تذكرت ما حذرتها بعض النساء منه.. قلن لها ذات يوم عندما رفضت الزواج بحجة زواجها من إبنها «سيأتي اليوم الذي يكبر فيه.. وتأخذه واحدة أخرى ولن يعرفك ساعتها» وهمست لنفسها بأسى وحزن شديد «ها هي اللحظة الموعودة قد أتت.. خطيبته ترفض الإقامة معي.. تريد أن تستقل به كبنات هذه الأيام.. إنها الخطوة الأولى من جانبها لكي تسلخه عني تماماً.. ليست رغبتها في السكن في المدينة إلا مبرراً لإحدى إثنتين.. إما وسيلة لرفضه لأنها لا تحبه وهي تعلم أنه مرتبط بالقرية في كل شيء من عمل وبيت وغيط وأمه وحياته كلها وبالتالي فهي تتوقع الرفض ويكون فسخ الخطبة.. أو لأنها لا تريد أن تقيم معي والإستقلال به بعيداً عني» أحست بأن لحظات صمتها قد طالت دون تعليق.. وأن إبنها ـ تشعر بغريزتها أنه ـ لم يزل ينظر إليها منتظراً لتعليقها على هذا.. لذا رفعت عينيها بعد أن تمكنت من تبخير ما تبقى من رشح دموعها.. تناست الطعنة وتغلبت على فجيعتها وسألته: «وماذا قلت لها؟

أحست أمه أنه يتكبد جهداً كبيراً ومشقة وهو يتظاهر بالشجاعة والصدق والإخلاص وهو يصارحها بأنه رفض

بالطبع.. وأنه قال لها في حزم «إن شرطه الوحيد لكي يتم الزواج هو أن تقيم مع أمه.. من المستحيل أن يترك أمه أبداً.. لقد ضحت بكل شيء.. ضحت بعمرها وشبابها من أجله.. فلا يمكن أبداً أن يتخلى عنها.. حتى لو أدى هذا الأمر إلى عدم إتمام الزواج».

رقّ قلب أمه واعتصرها إحساس بالشفقة لما رأته في عيني إبنها من ذل وحيرة وبؤس أدركت أنه يتحمل فوق طاقته.. لمحت مظاهر التمزق بين حبه لهذه الفتاة وبين شهامته وعرفانه بالجميل تجاه أمه.. كان يبدو لها في تلك اللحظة كفأر صغير وضعته الظروف داخل مصيدة من الحديد الصلب.. مأزق صعب وميئوس منه.. كما إنها شعرت في الوقت نفسه من خلال تعلق عينيه بوجهها في إلحاح أنه يلجأ إليها في توسل كعادته دائماً كلما اعترضته مشكلة.. في مواجهة تلك العواطف التي عصف بها قلبها حدثت نفسها بأنها لا يمكن أن تكون في يوم من الأيام مصدر تعاسة لإبنها.. حتى ولو ضحت بسعادتها هي وبأملها في أن يكون قريباً منها «إذا لم يكن له نصيب في الزواج من هذه الفتاة التي أحبها قلبه.. فليكن السبب بعيداً عني حتى لا يشعر بالظلم مني في يوم من الأيام.. لو كانت

الفتاة لا تحبه فهي حتماً سترفضه سواء قبل شرطها هذا أو بغيره.. وإن كانت ترفضني أنا.. فلا يهم.. سأتركه لها.. ويكفيني أن أراه أمام عيني سعيداً.. إنه في النهاية إبني» ولذلك همست له مؤنبة ولائمة: أو هذا كل ما يحملك كل هذا الهم والحزن؟!!

صاح مستنكراً ساخطاً على خطيبته: أو هذا بالشيء القليل يا أمي؟!!.. لا يمكن أن أوافقها على ذلك حتى لو كنت أحبها.

انتزعت من أعماقها إبتسامة هادئة طالعته بها كأنها تشكر له عرفانه بالجميل ورجولته ثم أضافت بنبرة اللوم ذاتها «لقد تسرعت في ردك على خطيبتك.. كان يجب عليك أن تتأنى» رد عليها دهشاً «أمي!!.. ماذا تقولين؟!!.. هل أوافقها على شرطها.. مستحيل!!»

أوضحت له بهدوء ومازالت ابتسامتها تفترش محياها «يا حبيبي الموضوع بسيط جداً.. هي باختصار تحب أن تعيش في المدينة.. وأنت مصمم على أن أعيش أنا معكما.. ما الذي يمنع أن تستأجر شقة في المدينة المجاورة، وأسكن معكما فيها؟.. ونكون بذلك ضربنا عصفورين بحجر

واحد.. أرضيت خطيبتك أو أرضيت نفسك»

ولم تنس انفراج أسارير وجهه فجأة حتى الآن.. كان كأبهى ما تشرق الشمس.. توهج بالبهجة وفاض بالإرتياح.. فجأة كل جبال الشمع الثقيلة التي كان يرزح تحتها انصهرت بفضل رأي أمه.. رأته يدف بجناحيه كعصفور صغير ويقبل عليها في غبطة حقيقية ويعانقها بإخلاص ويقبل رأسها ويديها وهو غير مصدق يسألها: أتقصدين هذا حقاً يا أمي؟!!

أومأت له بالإجابة وسط هذا البحر الزاخر بعواطف السعادة والفرحة.. وهكذا تم الزواج.. وسكنت معهما في شقة المدينة رغم أنفها.. فقط لترضي إبنها حتى لا تشعره في يوم من الأيام بالجحود أو بنكران الجميل.. وحتى لا تعطي فرصة لألسنة الناس في القرية ليطعنوا إبنها بأنه ليس له خير في أمه التي ضيعت شبابها من أجله.. وحتى لا تتعرض من جديد للألسنة اللائمة لها لأنها لم تستمع إلى نصيحتهم عندما مات زوجها ورفضت الزواج.. ها هو قد وقع لها ما توقعوه.. أخذت إبنها امرأة أخرى وتركها تقاسي الوحدة.. لكن عندما زادت مضايقات جميلة لها.. لم

تسمح لها كرامتها أن تواصل الحياة معهما.. في الوقت نفسه الذي امتنعت فيه عن مصارحة إبنها بما يقع من زوجته رافضةً أن تكون في يوم من الأيام مصدر هم وضيق لإبنها.. وخاصة أنها تمر الآن بأشهر الحمل الأولى.. وأقنعت نفسها بأنها كانت تعرف رغبة زوجة إبنها بالإستقلال بعيداً عنها.. ولقد قبلت بها يوم أن وافقت إبنها على سكنها في المدينة.. فلا داعي إذن لإثارة المشاكل.. ويجب أن تتعلل بأسباب أخرى حتى ترجع إلى بيت البلد.. وعادت إلى الدار بعد أربعة أشهر فقط من إقامتها مع إبنها.. عاشت بمفردها في بيت القرية.. مكتفية بزيارته اليومية لها كي يعطي تلاميذه الدروس الخاصة في حجرة الجلوس، ثم يركب دراجته متوجهاً إلى شقته في المدينة.. كان فقط يحزنها أنه يمتنع عن تناول طعام الغداء معها متعللاً بأن جميلة تنتظره على الغداء ولن تأكل إلا معه.. وعندما يرى الدموع في عيني أمه يجاملها بأن يتناول معها لقمة أو لقمتين كي يطيب خاطرها.. وبعدها كانت تنتظره يوم الجمعة من كل أسبوع كأنه يوم العيد أو أكثر من يوم العيد.. إنه اليوم الذي يهل عليها إبنها وزوجته وطفلته عفاف التي تضاهي الشمس المشرقة. كانوا يقضون معها

يوم الجمعة يتناولون الغداء.. الذي تعد له أشهى ألوان الطعام عندها.. كانت في كل مرة تحاول الحصول على رضاء جميلة بكل الوسائل.. سائلة لها عن رأيها في الطعام وطريقة طهيه.. وعن نوع الطعام الذي تحب أن تعده لها في الأسبوع القادم.. وأحلى أوقاتها التي كانت تقضيها مع عفاف تلاعبها وتغني لها وكانت تخاف عليها من الحسد.. فما إن يراها أحد من الجيران أو أهل القرية حتى تسارع بحرق الخرق البالية لطرد العين.. وتستعيذ بالله من عين الحسود إذا حسد.

ولقد عودتها تجربتها في الحياة أنه كلما كان الزمان أكثر ضحكاً في وجهها.. كان يجهز لها ضربة قاسية.. كانت مقتنعة تماماً أن هذه السعادة التي تسبح في بحرها تخبىء لها هماً جديداً.. ولذلك كانت تظل قلقة وخائفة على إبنها وأسرته طوال الأسبوع حتى يأتي يوم الجمعة وتعيش معهم وتنسى لساعات توترها وقلقها عليهم.. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي صارحها عبد الغني بأنه ينوي السفر إلى الخارج.. إلى اليمن. إنها لا تزال تتذكر ذلك اليوم القاسي، الذي طعنها فيه إبنها بخنجره المسموم، عندما صارحها بعد تردد، وبعد أن أطال وأسهب في الظروف المعيشية الصعبة

التي يعيشونها في هذه الأيام.. وكيف أن الناس اضطرت إلى السفر إلى الخارج حتى تواجه متاعب الحياة المادية.. إن الكثيرين من زملائه غامروا وتركوا أعمالهم ووظائفهم وسافروا إلى الخارج وعادوا بعد عام أو إثنين ومعهم آلاف الجنيهات.. وأسعدوا أنفسهم وأسعدوا أسرهم.. لم تكن من الغباء حتى تسمع منه كل هذه المقدمات والمبررات ولا تفهم أنه يمهد لشيء لن ترضى عنه.. لكن لم يخطر ببالها أبداً أن يصل الأمر إلى مباغتتها بقوله مرة واحدة كأنه يلقي بها فجأة في قفص السباع الجائعة «أمي.. لقد حصلت على عقد عمل.. سأعمل مدرساً.. في.. اليمن..».. لم تتحمل.. شهقت شهقةً مرعبة بشعة.. تشبه تلك الشهقة التي تواكب خروج الروح من الجسد.. ضربت بكفها على صدرها بقوة وصرخت ملتاعة «اليمن؟!!.. اليمن مرة أخرى؟!!.. ألم يكف اليمن أن سلبت مني أباك؟!! رملتني وأنا لم أزل شابة.. أتأتي لي مرة أخرى تريد أن تسلبك أنت مني في شيخوختي؟!!.. ماذا فعلت أنا لليمن كي تنتقم مني؟!!.. أنا لم أفعل لها أي شيء.. أنا لم أسيء إلى أحد في حياتي.. عندما انتزعت أباك مني.. تحملت وصبرت.. ولم أفعل لها أي شيء.. هل لأني صبرت قررت أن تعيد

الكرة معي مرة أخرى وتنتزع مني أغلى من لي في هذه الدنيا؟!!.. حرام.. حرام عليها اليمن.. والله حرام عليها اليمن..»

انتفض عبد الغني مأخوذاً بهذا الإنفعال، وخشي على أمه أن تفقد عقلها.. نهض إليها وراح يهدئها ويطمئنها بأن الأمر ليس خطيراً إلى هذا الحد.. وأن الظروف التي ذهب فيها أبوه إلى اليمن خلاف الظروف التي سيذهب هو فيها إلى اليمن.. أبوه كان ذاهباً في حرب.. لكنه سيذهب للعمل في أمان وسلام.. وأن كل المعلمين يذهبون إلى اليمن بالآلاف ويعودون بخير وسلام محملين بآلاف الدولارات.. إنها أمنية كل إنسان في مصر الآن..

لم تقتنع بكلامه.. أزاحته بعيداً عنها وواصلت بإنفعالها ودموعها المنهمرة وصوتها المجروح «اليمن هي اليمن.. سواء في حرب أو في سلام.. ولكن لماذا اللوم على اليمن؟!! اللوم يقع عليك أنت لا على اليمن.. أبوك عندما ذهب إليها.. ذهب إليها مرغماً.. ذهب إليها تنفيذاً لأمر عسكري لا يمكن رفضه.. وإلا قتلوه بالنار.. لكنك تذهب إليها بنفسك تذهب إليها وبإرادتك.. من أجل ماذا؟.. من أجل

الدولارات؟!! من أجل المال تُضَيّع من؟!! أمك؟!!.. أنا التي ضيعت عمري عليك..لا تضيعني أنت من أجل حفنة مال تفرح بها زوجتك؟!!.. نعم هي زوجتك وراء كل تلك المصائب التي تحل بي.. في أول الأمر أرادت أن تستقل بك وتسكن بعيداً عني.. ووافقتها.. ولم أعترض وقلت يكفيني منك أن أراك كل يوم أمام عيني سعيداً.. ضايقتني.. وسقتني الذل والمهانة كي أترك شقتكم وأعود إلى القرية.. ولم أشك.. تحملت وجئت إلى هنا.. ولم أعكر صفوك وحجبت عنك كل المشاكل حتى تحتفظ بسعادتك معها.. ولكنها تأتي الآن وتطلب منك أن تسافر بعيداً عني.. إلى اليمن.. اليمن هذه التي تأخذ الرجال ولا تردهم.. اليمن التي رمّلت نساء مصر ويتمت أولادها وخربت ديارها.. تأتي اليمن الآن لتخطفك مني.. لا.. لن أصبر.. لن أهادنها.. لن أستسلم لها أبداً.. لن أوافقك هذه المرة.. واعلم أنك لو ذهبت سأظل غاضبة عليك إلى يوم الدين.. إلى يوم الدين».

بقيت تلهث منفعلة لفترة طويلة تجفف دمعها وتطالع وجهه في محاولة منها لقراءة ما يدور بداخله بعد أن علم رأيها النهائي في الموضوع.. لكنه كان منكساً رأسه في

الأرض مخبئاً عينيه بعيداً عن عينيها.. احتفظ بصمته وجموده كحجر أصم.. لا ينطق ولا يجيب.. إلى أن فاضت بهذا البكم الذي أصابه.. لا يتفوه بكلمة واحدة يبرد فيها من أعصابها التي تحترق فصرخت فيه من جديد «هل خرست!!.. لماذا لا تتكلم بكلمة واحدة؟.. هل تخاف منها؟.. هل فقدت رجولتك أمامها؟!!.. ألم يعد لك أي رأي في حياتك!!.. أنطق.. هل ستسافر؟»

تململ للحظات نهض بعدها منكسراً ثم همس قائلاً وهو يتجه خارجاً من دار أمه في القرية «مايريده الله هو الذي سيكون يا أمي».

اختفى عنها لأيام.. عاد بعدها باهتاً مأخوذاً صامتاً.. راح يتمسح بأمه طالباً رضاها وعفوها عنه صارعاً لها بعبارة واحدة «سأسافر غداً يا أمي.. إلى اليمن» لم تنطق للحظات طويلة.. إنه خروج الروح.. كان خروج الروح أقل ألماً من سماعها لهذا القرار النهائي الذي يقتلها به إبنها.. تحجرت عيناها ساقطة بكل نظرها فوق وجه إبنها المهزوم المستسلم.. حبست دمعاتها وتكلست بقايا دمعاتها السابقة بين جفنيها ما أكسبها لمعاناً زجاجياً مهيباً ومحزناً في الوقت نفسه،

وبعد أن حاولت السيطرة على هذا التشنج العضلي الذي أصاب فكها الأسفل الذي أدى إلى رجفة متواصلة في شفتها السفلى قالت باستسلام مخلص لا مقاومة فيه «في حفظ الله يا بني.. واعلم أنني لم أغضب عليك.. ولن أغضب عليك أبداً»

وسافر إلى اليمن وعاد.. ثلاث مرات عاد من اليمن.. أبديت له رغبتي أن يكتفي وأن يبقى وسط أسرته.. لكنه لم يعد يستجيب لي.. في المرة الأخيرة قال إنه سيبقى عامين هناك.. لا يأتي في عطلة الصيف، ثم يعود بعدها نهائياً.. يستغل المال الذي جمعه في إقامة مشروع.. باركت له فكرته بعدم العودة إلى اليمن مرة ثانية.. لكنني لم أوافق أبداً على بعده عني وعن أسرته لمدة عامين متواصلين.. لكنه هون عليّ الأمر زاعماً بأن الأيام لا يوجد أسرع منها.. وها هو يعود الآن.. ولم يجد زوجته في انتظاره.. بل أتت لي في القرية في الصباح طالبة مني تسلم الشقة أمام الجيران بكل محتوياتها.. وأن يبلغ إبني بضرورة تطليقها.. لأنها لا تقبل أن تعيش مرة ثانية وتحت سقف واحد مع رجل أحب المال و(الدولارات) أكثر من حياته وحياة أسرته.. رجل بخيل.. سافر إلى اليمن منذ عامين ولم يترك لها غير مائة جنيه

فقط.. لا.. لم تكن التي كلمتني صباح اليوم هي جميلة زوجة إبني التي أعرفها.. تغيرت تماماً.. ولكن.. كيف سأصارح إبني بذلك.. لن يتحمل الصدمة.. قد يفقد عقله.. قد يفقد عمره (وأعيش أنا بحسرته كما عشت بحسرة أبيه من قبل.. يجب عليّ أن أهيئه لاستقبال تلك المصيبة حتى لا يفاجأ بها في بيت صهره..

وبينما كانت غارقة في بحر حيرتها عن الكيفية التي ستتصرف بها حيال هذا الموضوع جاءها صوت إبنها قادماً من الصالة يحثها على الإنتهاء في شكل مزاح: ما هذا يا أمي.. هل طبخت لي رائحة المحشي فقط.. إني أشم رائحة المحشي ولا أراه.. ردّت عليه من المطبخ وهي تجفف دموعها وبصوت حرصت كل الحرص أن يخرج منها فرحاً طروباً.. كأنها سعيدة سعادة حقيقية: دقيقة واحدة يا حبيبي.. فقط أسخن الطعام وأعمل السلطة.. لقد انتهيت من كل شيء..

جلس أمامها إلى المائدة يلتهم الطعام بشهية المهموم وشروده.. كانت أمه تتظاهر بتناول الطعام معه لكنها كانت تراقبه بإمعان.. تلك التكشيرة التي تعرفها من تقلص خيوط جبهته وارتفاع حاجبيه على غير عادتهما.. إنه هو عندما

يغرق في تفكير حزين.. فكرت في أن تقطع عليه تلك التكشيرة فقالت مازحة: يعني.. لم تقل رأيك في المحشي والبط.. أم أن طهي أمك لم يعد يروق لك؟

رفع رأسه إليها كأنه يخرجها من بئر وهتف بمرح مصطنع: ما هذا يا أمي.. إنه أشهى طعام أتناوله.. هل تصدقين أن هذا الطعام.. المحشي والبط.. هو بالضبط الطعام نفسه الذي تمنيت أن أجده في بيتي عندما أعود!!

ردت عليه بسعادة وإخلاص: إن قلب الأم لا يخذلها أبداً.. لقد توقعت أن تكون مشتاقاً إلى طعام أمك القديم الذي حرمت منه.. الحمد لله على سلامتك.. لكن.. هل سترجع إلى اليمن مرة ثانية؟

أجاب مؤكداً في صدق بينما كان يقرب منه قطعة اللحم لالتهامها: لا.. كفاني تعباً يا أمي.. لقد أخذنا نصيبنا منها والحمد لله لأني رجعت منها سالماً وبصحتي.. آن الآوان لكي نستمتع بما جمعناه من أموال.. إنني أفكر في عمل مصنع صغير للمسامير في بيت القرية.. لن يحتل إلا حجرة واحدة..

قاطعته قائلة: تناول عشاءك أولاً.. وفي الأيام القادمة

متسع للحديث عن المشروعات.. طافت بوجهها سحابات الحزن التي غافلتها وانطلقت تعربد في تجاعيد وجهها التي زادت عمقاً عن ذي قبل.. ولم يطمئن إلى هذا الحزن الذي يوحي به وجه أمه فسألها متوجساً: أمي.. صارحيني.. هل هناك شيء يحزنك؟

توقفت عن الإجابة للحظات فكرت فيها أن الوقت قد حان لتهيئة إبنها لتلقي الأحداث فقالت معاتبة: أنا ـ بصراحة ـ زعلانة منك أنت..

إنتبه لها فزعاً: مني أنا يا أمي؟!.. لماذا؟!

واصلت عتابها المصطنع: كيف تسافر إلى اليمن وتغيب كل هذه المدة.. دون أن تترك لزوجتك وابنتك ما يكفيهما من فلوس؟

زاد شحوب لونه وجحظت عيناه مستنكراً، وقد اشتم رائحة كارثة في الأفق أكبر من مسألة مرض والد زوجته الذي بررت به أمه له سبب غياب زوجته وابنته وصاح متهكماً: أنا لم أترك لهما ما يكفيهما من مال؟!!.. من قال هذا الكلام الفارغ؟!!

استمرت أمه في عتابها: زوجتك لا تكذب.. تترك لهما

- مائة جنيه فقط.. وأنت تعلم أن هذا المبلغ وفي هذا الغلاء.. لا يكفي أية أسرة أكثر من شهر واحد فقط!!

سأل دهشاً وغير مصدق: جميلة زوجتي هي التي قالت ذلك؟!! ولمن قالته؟!!

اشتكت به لي صباح اليوم.. ولكل الناس الذين لاموها لأنها خرجت للعمل عند صديقك كيلاني الغتت.

وكشجرة زيتية ضربتها صاعقة صيفية اشتعل فجأة بوهج وحرارة.. أحس بنفسه ينكمش ويتضاءل فوق مقعده.. وارتعشت يده الممسكة بالملعقة فسقطت منه على المائدة.. وبعد أن تأرجحت عيناه الزائغتان عدة مرات فوق أماكن مختلفة غير معينة من حوله، همس بصوت ذبيح مستشعراً الهزيمة والخذلان: جميلة خالفت أمري وخرجت إلى العمل بدون إذني.. هل هذا معقول؟!!

عاد لتنكيس وجهه.. أخذ ينفض رأسه ويهزها بعنف رافضاً التصديق.. بينما ظلت أمه شامخة متماسكة.. حاولت أن تحافظ على أعصابها في هذا الوقت بالذات.. إنه أحرج أوقات حياتها التي تحتاج فيها إلى كل تركيزها وهدوء أعصابها.. كانت كطبيب يجري لإبنه الوحيد

عملية خطيرة.. ظلت شاخصة إليه.. أرادت أن تمنحه الفرصة الكافية للتفكير والإنفعال والزعل وحتى الثورة في وجودها.. أرادته أن يخرج كل ما يعتمل في نفسه في حضرتها هي حتى يمكنها التدخل عند الحاجة.. بدلاً من أن يفاجأ هناك.. لن يقف من حوله أحد.. سيتركونه نهباً للغضب والأحزان.. وربما يجهزون عليه دون رحمة النار لا تحرق أحداً غيري.. الزوجة لها أكثر من زوج.. والأم ليس لها إلا ولدها.. لا تستطيع أن تستبدله بآخر.. وكتمت آهة مرة مرارة الفقد الذي يترصد حياتها.. وهمست إلى إبنها مشفقة عليه من تحمل كل هذا الهم في الوقت نفسه الذي كان يهدىء نفسه للفرح والسعادة فيه بعد سني الغربة: يا حبيبي لا تغضب نفسك.. الإنفعال يضر بصحتك.. كل الأمور والمشاكل يمكن حلها، وتسويتها بالعقل والحكمة..

قاطعها ثائراً: أية حكمة تنفع مع مثل هذه المرأة المجنونة.. تدعي كذباً أنني لم أترك لها غير مائة جنيه فقط!!.. لقد تركت لها يا أمي ثلاثة آلاف (دولار) قبل أن أسافر. شهقت الأم دهشة وضربت بيدها فوق صدرها: ثلاثة آلاف (دولار)؟!!.. لماذا شهرت بك إذن وسط الناس ووصمتك بالبخل والتقتير؟!!

أجاب ساخطاً: السبب حتماً تعرفه هي.. أما أنا فأستشعر الآن خسارة كبيرة.. خسارة عمري وغربتي التي ضيعت فيها أجمل سنوات عمري من أجل زوجة مجنونة كاذبة.

أمام ثورة إبنها لم تجد غير عودتها إلى الهدوء والتقليل من حجم المشكلة كعادتها حتى تلطف من الهم وتزيله من فوق صدر إبنها.. انتزعت إبتسامة ولامت إبنها: أنت هكذا دائماً.. عصبي.. وتظلم زوجتك.. يجب أن تتأنى.. إسمع منها الأسباب.. ربما قالت هذا خوفاً من اللصوص.. حتى لا يطمع فيها أحد في غيابك معتقداً أن معها أموال اليمن..

وكأن هذا التبرير قد أراحه إذ لاحظت أن أسارير وجهه شرعت تتراخى وتنبسط.. ولذلك واصلت حديثها إليه: عليك الآن أن تأخذ قسطاً من الراحة وتنام ساعات الليل الباقية.. وفي الصباح تذهب إليها في بيت أبيها ومعك هداياها وهدايا أهلها.. وأنا واثقة أنها بمجرد رؤيتك لها، ولعفاف القمر ستنسى كل شيء.. وسيتم التفاهم على كل شيء، ولفت انتباهها أن ابتسامة قد تسللت إلى جانب فمه، عندما ذكرت له إسم عفاف إبنته.. فركزت على ذكرها من

جديد بتفاؤل وإعجاب أكثر: لقد كبرت عفاف وصارت عروسة حلوة يمكنك أن تجهز نفسك من الآن لاستقبال الخُطّاب. فاتسعت إبتسامته أكثر وهو يتذكر عفاف إبنته هامساً لأمه في شوق صادق: أشعر بشوق كبير يا أمي لرؤية عفاف..

إستمرت أمه في إضفاء جو البهجة والفرحة على المكان والحديث لتحافظ على سعادة إبنها قائلة في مداعبة: قل الحقيقة ولا تخبيء شيئاً عن أمك التي تفهمك جيداً.. هل الشوق إلى عفاف؟.. أم إلى أم عفاف؟..

استجاب لدعابة أمه بطيبة وسذاجة وقال بضحكة مسموعة وهو يتذكر الملابس الداخلية التي أتى بها لجميلة زوجته والليلة التي ضاعت منه: في الحقيقة يا أمي.. إليهما معاً.

جارته في الضحك وقالت إذن عليك أن تنهض الآن للنوم والراحة.. ثم تحمل عروسة عفاف الكبيرة هذه وتذهب إليها.. حان الوقت لكي تعوضهما عما فات..

نهض كطفل مطيع وهو يؤكد لها بإخلاص: فعلاً يا أمي.. يجب أن أعوضهما.. وأعوضك ما قصرت فيه..

ولكن كان علي أن أتعذب وأتعب حتى نحصل على الراحة بعد ذلك.. وكما يقول الفيلسوف «لا خير في لذة يعقبها ألم.. والخير كل الخير في ألم يعقبه لذة»

ولم تفهم أم عبد الغني ماذا يقصد إبنها بهذا ولم تهتم بأن تفهم، لأن الذي يشغلها الآن هو ما سيحدث في الغد لولدها.. لقد فكرت أن تذهب معه بحجة شوقها لزيارة أهل زوجته لأنها لم ترهم من فترة طويلة.. لكنها عدلت عن ذلك.. فربما تطور الخلاف بينه وبين زوجته وأهلها وقد يتطاولون عليه أمامها.. فقد تأخذه العزة في وجودها ويرد عليهم ولا يتسامح.. ويتصاعد الموضوع.. لكن عدم وجودها قد يجعله يبتلع بعض الإهانات وتمر الأمور بسلام.. ويعود من جديد بزوجته وابنته.. وتعود هي من جديد إلى دار القرية.. مكتفية بنعمة سماع كل خير عن إبنها الوحيد.. فهذا الشيء أصبح يكفيها ولا تطمع في أكثر من هذا.. أن يعيش في هذه الدنيا سعيداً.

في صباح اليوم التالي نهض عبد الغني من نومه بوجه طازج وعينين جديدتين.. سعدت أمه لرؤيته هكذا.. أدركت أنه تجاوز مرحلة الكدر والتحسس لأية مصيبة

وخمنت أنه يحتفظ في أعماقه بآمال وطموحات كبيرة تجعله يتغاضى عن سفاسف الأمور.. لكنها استدركت الأمر ولدغها الحزن والخوف على إبنها من جديد.. إذ أنها نسيت أن ما وقع من زوجته أمس معها وإصرارها على طلب الطلاق لم يكن بالأمر الهين.. إن سبّها له على الملأ وإدعاءها أمام الجيران بأنه بخيل ويعبد القرش لم يكن تصرفاً عابراً من زوجة عاتبة على زوجها الذي أهملها.. ولا تصرف تمثيلي حكيم منها أمام الناس حتى تبعد عنها عيون اللصوص والطامعين فيها كما خمنت أمام ولدها أمس لتطفىء نار ثورته وانفعاله.. لكنها كانت جادة فيما قالت.. أحست باللوم لنفسها، فقد تكون خدعت نفسها وابنها دون أن تقصد.. وبذلك قد يفاجأ عندها بشيء مختلف لتوقعه الذي أوحت هي به إليه ويصدم.. وترددت في أن تخبره بأن زوجته تطلب الطلاق.. فقد يكون هناك أمل في الرجوع عن طلبها هذا عندما تراه مرة ثانية.. فخشيت إن هي قالت له أن تتفاقم انفعالات الغضب عنده، ما يجعله خشناً معها عند زيارته لها، ولن يؤدي ذلك إلى حل المشكلة لو كان هناك أمل في حلها.. فربما تدخل أهلها بينهما بإخلاص وأعادوا مياه النهر إلى سابق مجراه..

في الوقت نفسه الذي نظر عبد الغني إلى أمه وهو يلقي عليها تحية الصباح فتأكد من أن أمه لم تذق طعم النوم فتلك الهالات السوداء حول عينيها التي استحال اللون الأبيض فيهما إلى اللون الباهت المزركش بخطوط حمراء.. وهذا الشحوب الفزع الذي كفن كل التجاعيد في وجهها.. هزّ رأسه راثياً لحالها هامساً لنفسه «هكذا هي أمي دائماً.. تحمل الأمور أكثر مما تحتمل.. مازالت حزينة من أجلي لأن جميلة زوجتي تركت البيت بحجة واهية أمام الناس.. هي لا تعرف زوجتي كما أعرفها لقد فعلت ذلك حتى تضغط عليّ لشراء الذهب لها.. يبدو أنها ملّت من كل وعودي لها بالثراء من أرباح التجارة» وابتسم لنفسه لأن أمه معذورة في تصرفها هذا.. فهي لا تعلم أن جميلة قد تكون خرجت إلى دكان صديقنا كيلاني الغتت لكي تشرف على مالنا وتجارتنا معه.. فأمي لاتعرف شيئاً عن تصرفي المالي.. ولكن آن الأوان لعلاج كل الأمور.. لن أنتظر جميلة كي تطلب الذهب حتى تعود إلى البيت.. سأشتري لها هدية ذهبية فخمة قبل أن أذهب إليها في بيت أهلها.. سأشتريها من مدينتهم.. فهناك لا يعرفني أحد ولن يحسدني أحد لشراء هدية من الذهب بمثل هذا المبلغ الضخم.. سلم على أمه

مودعاً بتفاؤل، ثم فتح باب شقته خارجاً وراح يتدفق مسرعاً إلى محطة الحافلات محتضناً أجمل هدية لأجمل طفلة.. العروسة الكبيرة التي طلبتها منه عفاف منذ عام.. وكذلك علق في كتفه حقيبة متوسطة الحجم من تلك الحقائب التي تستخدم للسفر في الرحلات القصيرة وتحمل في اليد أو تعلق في الكتف.. ولكن لأن يده اليمنى مشغولة باحتضان عروسة عفاف، فقد علق الحقيبة في كتفه وقد وضع فيها الهدايا التي اشتراها لصهره وحماته بالإضافة إلى ذلك فقد اتخذ احتياطه في أن الظروف قد تفرض عليه أن يبيت ليلة عند أهل زوجته لذلك دسّ في أعماق الحقيبة واحداً من قمصان النوم الداخلية.. اختار أكثر الألوان التي يحب أن يرى زوجته فيه أول مرة.. دائماً يليق معها اللون «البيج».. وانطلق يزاحم الناس الذين يتكدسون في محطة الحافلات غير عابىء بأحد.. تقدم إلى شباك حجز التذاكر.. تناول التذكرة واستدار باحثاً عن الحافلة.. بخفة ورشاقة بهلوان ارتقى سلالم الحافلة متحاشياً ملامسة العروسة لأي شيء.. يخاف عليها من أن تصاب بسوء.. وما إن عثر على المقعد المخصص له حتى استل الحقيبة التي في كتفه ورفعها إلى أعلى حيث وجد لها مكاناً في الرف العلوي للحافلة..

دفعها إلى عمق الرف حتى لا تسقط إذا ما اهتزت الحافلة أو توقفت فجأة لأمر طارىء.. بحرص شديد احتل مقعده بهدوء ، ثم وضع العروسة بصندوقها أمامه بين ساقيه، بعد أن أدرك أنه لا يمكنه وضعها فوق فخذيه؛ لأنها في هذه الحالة ستضايق الراكب العجوز الذي يجلس بجواره.. راح يتأمل وجهها الذي يطل عليه باسماً من خلف (البلاستيك) الشفاف الذي يحفظها.. ابتسم لها.. تذكر عفاف وفرحتها بها.. مد أنامله إليها ملامساً الغلاف (البلاستيك) بتصرف تلقائي لا إرادي سرت في يده متعة ورعشة كأنه يلامس جلد عفاف وبشرتها الرقيقة الناعمة المفعمة بالدفء.. وقبل أن يستطرد في مناجاة طيف عفاف اقتحم عليه خياله سؤال مفاجىء هو: لماذا لم تخبرني جميلة.. وكذلك لم يخبرني كيلاني بأن جميلة تذهب إلى المحل لتتابع نمو رأس مالنا.. شرد.. لم يكن في حاجة إلى تلمس الأعذار أو التعب في البحث عنها فلقد استنتج بذكاء أنهما فعلا ذلك حتى لا يثيرا غضبي.. لأنهما يعرفان موقفي المشدد من مسألة خروجها للعمل.. على أي حال هناك عتاب قاس سأعاتب به كيلاني.. كيف يسمح بذلك وهو يعرف أنني أرفض ذلك؟!!.. ربما إنصاع هو الآخر لرغبة زوجته.. فقد كان

من رأيها أن تخرج زوجتي إلى العمل حتى تخفف عن نفسها عناء الوحدة في غيابي.. لكن أي عمل الذي يناسب شهادة الإعدادية التي تحملها جميلة.. كانت تبدي رغبتها في العمل في شركة سياحية.. أو تتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة وتعمل في أي محل.. هز رأسه بألمعية وفطنة معاتباً.. هي وليس أحد غير زوجة الكيلاني.. أرادت أت تضرب عصفورين بحجر واحد.. تخرج جميلة للعمل.. وفي الوقت نفسه تكون في رعايتهم وحمايتهم.. ولكن لن أعفي جميلة من التقصير لأنها لم تذكر ذلك في أي من رسائلها.. حانت منه التفاتة عبر نافذة الحافلة التي لم تزل متوقفة ولم تبدأ في المسير بعد.. راح يتابع الناس في زحامهم متدافعين في تجهم وتعجل.. كل واحد منهم يزيح الآخر من أمامه يريد التقدم عليه.. هز رأسه وهمس لنفسه: إذا كان هذا هو الزحام في الدنيا!!.. فكيف سيكون الزحام في الآخرة؟!!.. وابتسم مواصلاً استنتاجه عن وضع الناس يوم القيامة.. لا بد أنهم سيرجعون القهقرى.. وكل واحد سيقدم الآخر عليه.. انتزع عينيه من فوق الزحام في ساحة ركوب الحافلات.. ومدها إلى داخل الحافلة.. التقى مع عيون بعض الراكبات يمعن النظر إلى العروسة الواقفة في

حجم طفلة صغيرة بين ساقيه.. كانت نظراتهن مفعمة بالإعجاب والإنبهار.. سمع واحدة منهن تهمس إلى الأخرى بفراسة وحذق: يبدو أنه أحضرها من الخارج.. فأمنت الأخرى على كلامها معقبة بأن: ثمنها لا يقل عن مائة جنيه.. فردّت الأخرى مستدركة: هذا لو كانت موجودة في مصر.. شعر بسعادة لسماعه ذلك.. ثم انتابه نوبة من التطير والخوف من الحسد وهذا السلوك يلازمه من صغر سنه.. إنه إحدى العادات التي اكتسبها عن أمه التي كانت ترتعد من الحسد وعيون الناس منذ أن أودت عيون الناس بحياة زوجها في اليمن عندما كانوا يقولون لها في وجهها ودون مواربة أو تورية «يا بختك.. بكره زوجك يرجع من اليمن زي اللي رجعوا محمل وشايل» ولم يمض على هذا الكلام غير أسبوعين حتى جاءها خبر موته.. ولذلك اعتاد عبد الغني أن يسارع بقراءة سورة الفلق كلما تطير من نظرة أو كلام أحد.. بينما كانت تسارع أمه إلى تمزيق وحرق الخرق البالية.. فراح يقرأ سورة الفلق ويكبر في وجوههن في سريرته.. وما كادت الحافلة تتحرك وأقبل (الكمساري) يمر بالركاب كي يتحقق من التذاكر التي معهم .. ووصل إلى عبد الغني ووقف بجواره للحظات

يتأمل العروسة المنتصبة بين ساقيه ثم داعبه مبتسماً: إنها كبيرة جداً.. يجب أن تأخذ لها تذكرة.. إنها في حجم طفلة كبيرة.. ضحك جار عبد الغني العجوز، وضحك عبد الغني أيضاً بينما راح لسانه يتحرك داخل فمه في صمت بسورة الفلق ويكبر في وجه (الكمساري) الذي اطّلع على تذكرته وجاوزه إلى غيره.. بينما جاره العجوز أخذ يهيىء نفسه للنعاس والنوم بمجرد أن أنهى تعامله مع (الكمساري).. كأنه قد ملّ الفرجة والنظر إلى الآخرين.. مقتنعاً بأن أسلم الطرق لكي يعيش الإنسان سعيداً في هذه الحياة هو أن يغمض عينيه عن كل شيء.. ولذلك لم يضع وقته.. فلقد أسبل عينيه وألقى برأسه إلى ظهر المقعد.. وفي لحظات غاب عمن حوله.. ابتسم عبد الغني لتلك الطريقة السريعة في النوم.. تركه وشأنه.. شرع يتابع الصور المتلاحقة في سرعة خارج الحافلة.. أغصان الأشجار الخضراء بأوراقها كانت تحتك في سرعة بزجاج النافذة المجاورة له.. كان يزور مبتعداً عنها.. وينكمش برأسه داخلاً متحاشياً خدشتها لعينيه.. وأخيراً قرر أن يغلق زجاج النافذة ويستريح.. استلقى هو الآخر برأسه إلى ظهر المقعد الذي يجلس عليه.. سبح ببصره في رؤوس الركاب المتراصة أمامه

في نظام وترتيب.. بدأت تتراقص داخل عينيه دوائر صغيرة صغيرة أخذت تكبر وتكبر وتتكاثر.. وفجأة توقفت الحافلة في مكان أشبه بالصحراء.. لكن رمالها كانت ناعمة مثل الدقيق الأبيض.. كانت متسعة جداً ومترامية بلا حدود ولم يكن لها ـ على غير العادة ـ خط أفق يتوقف عنده البصر.. قبل أن يثير ذلك دهشته وأسئلة غامضة في خياله فوجىء الركاب جميعهم بلا استثناء برجل طويل جاف الملامح.. كان كعود الذرة الشامية الذي ترك فوق سطح أحد المنازل الريفية منذ أعوام بعيدة فنخره السوس وتجمع حوله ـ على إثر سقوط الأمطار ـ عفن أسود محروق تحت وهج شمس الصيف التالي.. بعد أن جذب انتباه الناس جميعاً.. رفع يده إلى فمه وكان ممسكاً بها مكبراً للصوت أخذ يصيح مكرراً بصوت عال: الأستاذ عبد الغني أبو ثروة.. على الأستاذ عبد الغني أبو ثروة الحضور إلى هنا أنا الإستعلامات.. يجب أن يصدقني أنا الإستعلامات..

إستيقظ العجوز من نومه ومال ناحيته متسائلاً في غضب: ألست عبد الغني أبو ثروة؟ أجابه عبد الغني متردداً مرتبكاً: نعم.

لكزه العجوز بجفاء واحتقار: أليست زوجتك جميلة تاجرة العملة الصعبة؟

تضايق عبد الغني منه ونهره بخشونة وفظاظة: لا أسمح لك بأن تقول على زوجتي.. إنها من أشرف نساء الأرض.. ربما أغراها كيلاني بفعلها مرة واحدة.. أو مرتين.. لكنها لم تصل إلى حد الإدمان في شرب المخدرات والإتجار بالعملة الصعبة أنا لم أترك لها غير ثلاثة آلاف دولار فقط لا غير و...

وقبل أن يكمل توضيحه للعجوز كان الرجل الشبيه بعود الذرة الشامية الطويل قد وقف بمحاذاته.. نحى مكبر الصوت عن وجهه تبين عبد الغني فجأة أنه في مواجهة صديق مخلص.. بل من أخلص الأصدقاء في العالم.. نهض عبد الغني فارداً كلتا ذراعيه ليحتضن صديقه اللدود الذي سعى له منذ سنوات في استخراج جواز السفر المزوّر.. وهو نفسه الذي حصل له على عقد عمل في اليمن.. وبعد التعرف والأحضان الملتهبة بالشوق بينهما انتبها معاً ومرة واحدة إلى جميع الركاب بلا استثناء فلم يروا منهم غير عيون الغيظ والتجهم في الوجوه.. وأدركا معاً في اللحظة

نفسها كأنهما توأم.. أن الركاب كلهم وبلا استثناء يتميزون غيظاً بسبب هذا التأخير الذي سببه لهم كلاهما.. فتأبط كل منهما ذراع الآخر.. وهبطا معاً في اللحظة نفسها من الحافلة التي هربت منهما بسرعة كأنها تهرب من نصيب محتوم..

استدار عبد الغني بتوجس وقلق غير متوقع إلى رفيقه القديم وسأله بتردد بعد أن لمح هذا الوجوم الذي يلوّن وجهه الأسمر: هل هناك مايزعجك يا صديقي؟!!

تطلّع إليه الآخر في إزدراء واحتقار وسأله كأنه يستجوبه ويحقق معه: هل تعرف ماذا فعلت أمريكا في هيروشيما؟.. لقد ألقت فوقها القنبلة الذريّة.. مات اليابانيون، وانتصرت أمريكا..

أثارت تلك الكلمات حنق عبد الغني وصرخ في وجه صديقه معنفاً: ألهذا أوقفت الحافلة.. أزعجت كل الركّاب بلا استثناء.. لكي تنطق لي بكلمات قديمة من التاريخ المسطور؟

لم يلتفت صديقه إلى عتاب عبد الغني المر ولكنه ظل يطوي كلماته على روح عدائية إزدرائية وواصل يحقق معه

ويستجوبه: هل سمعت عن سيدة كانت فاضلة ومحجبة.. كانت مستكنة في بيت زوجها كما الطفل في رحم أمه.. كانت تخجل من محادثة الغرباء.. كانت تطل من نافذتها مخافة أن تحسدها الشمس على شعرها الذي تفوق في اصفراره ووهجه على أشعتها الصباحية.. وتحاشياً من حزن الأشجار لأن اخضرار عينيها أكثر نضارة من أوراق أشجارها الربيعية الوليدة.. وحتى لا يهرب القمر من السماء الليلية للدنيا مهزوماً محسوراً إذا وقف على فتنة وجهها الهامس بالحنان والإغراء والشهوة.. وكان إسمها جميلة؟

لم يخف عبد الغني ثورته وانفعاله بل انفجر في وجه صديقه: لماذا تتكلم على زوجتي؟

لم يجبه صديقه إلى سؤاله.. بل واصل باحتقار منفعل كأنه يبصق في وجه عبد الغني: هل علمت أن هذه السيدة التي كانت مصونة.. والجوهرة التي كانت مكنونة.. أصبحت الآن من أكبر تاجرات العملة الصعبة.. تبيع مع الدولارات وبالدولارات سبائك شعرها الذهبي.. وزمرد عينيها ولؤلؤ فمها وشفتيها الرقيقتين المفعمتين بالشهوة وكذلك ضحكتها المقبلة على الدنيا بشراهة ونهم وطموح؟

لم يستطع عبد الغني أن يتمالك نفسه في مواجهة هذا الطعن في عفة زوجته أشرف نساء الأرض.. رفع يده في الهواء ليهوي بها على صدغ صديقه الذي كان مخلصاً.. غير أن الآخر كان متيقظاً وأسرع منه حركة.. إلتف حول نفسه لفة خارقة ثم عاد ودفع عبد الغني بقوة انتقامية عدائية فسقط على وجهه.

هبّ عبد الغني من غفلته مذعوراً مفعماً بالضيق والإكتئاب ليجد الأصوات داخل الحافلة تضطرم وتتصاعد بالتكبير وبستر الله وبلفت نظر السائق المتهور بضرورة التأني والتروي وعدم السرعة.. وصاح (الكمساري) مهدئاً الركّاب ومطمئناً أحمدوا ربكم يا جماعة.. لولا ستر الله لقلبت بنا الحافلة.. لقد خرجت فجأة ـ من طريق جانبي ـ بقرة صغيرة جامحة اضطر السائق إلى محاولة التوقف.. لم تكن لديه فرصة للتوقف الهادىء..

انتبه عبد الغني إلى جاره العجوز فوجده يتمتم بدعاء بينما كان ينظر مبتسماً إلى العروسة ثم خاطب عبد الغني مازحاً: أنظر إليها إنها تبتسم بالرغم من حالة الفزع التي سيطرت على الجميع.. حتى على صاحبها.. وهذا هو

الفارق بين خلقة الله القادر وبين صناعة البشر.. الإحساس والمشاعر.

انتظرالرجل أي تعليق من عبد الغني.. لكن لم يظفر به.. لأن عبد الغني كان غارقاً تماماً في تفسير هذا الحلم الذي رآه منذ لحظات.. وحاول أن يقنع نفسه بأن ما رآه هو مجرد أضغاث أحلام.. فهو لا يذكر له صديقاً بهذا الشكل.. ثم إنه هو بنفسه الذي سعى إلى تزوير جواز سفره بعد أن غير المهنة في أوراق وإستمارات البطاقة الجديدة كتبها تاجراً بدلاً من معلم بالتربية والتعليم.. وحصل على توقيع إثنين موظفين ورئيسهم وخاتم شعار الجمهورية.. وعلى ضوء البطاقة العائلية الجديدة استخرج بنفسه جواز السفر الجديد بعد أن ارتدى جلباباً بدلاً من القميص والبنطلون عندما كان يقدم أوراق الجواز إلى المسئول عن الجوازت حتى يوهمه بأنه تاجر مثلما هو وارد في البطاقة العائلية.. وعقد العمل هو الذي ذهب بنفسه إلى سفارة اليمن بالقاهرة مع غيره من المعلمين، وغير المعلمين وحصل على العقد.. لحس عبد الغني شفتيه وهزّ رأسه مشيحاً في وجه هذا الحلم الذي هو من فعل الشيطان كي ينفره من زوجته جميلة، ويشككه فيها، وفي أخلاقها.. ثم استدرك

مستنتجاً.. أو يكون هذا الحلم عاكساً للهفتي الجنسية الدفينة إلى جميلة؟..لا وربما قام عقلي الباطن باستدعاء أوجه الجمال في جسدها تخفيفاً لهذا الكبت الجنسي الذي يمور به داخلي.. وابتسم ساخراً في وجه تلك الخزعبلات التي رآها في هذا الحلم وهو يهمس «جميلة الساذجة التي كانت تخاف من شراء كيلو طماطم، ظناً منها أن البائع قد يتشاجر معها إذا ما ساومته على الثمن.. ولذلك كنت أنا الذي أشتري لها كل شيء.. هل تستطيع أن تتاجر في العملة.. وتشرب المخدرات..» واستنكف التفكير.. مجرد التفكير في هذا الحلم.. وتشاغل عنه بالنظر إلى العروسة (البلاستيك) التي ما زالت ترنو إليه باسمة كعهده بها.. يتأملها.. اهتز فجأة عندما اكتشف أن هذه العروسة تشبه إلى حد كبير زوجته جميلة.. وسأل نفسه مستغرباً «كيف لم يكتشف ذلك من قبل؟!.. نعم إنها تشبهها تماماً..العيون الخضراء الواسعة.. الشعر الأصفر اللامع.. ابتسامتها الطفولية البريئة»

وكأن هذا الحلم قد حوّل عبد الغني إلى مكتشف زمانه.. فهو لم يكتشف الآن فقط أن العروسة تشبه زوجته جميلة.. بل إنه اكتشف أيضاً وفي اللحظة نفسها أن سر

حبه إلى هذه العروسة ليس لأنها فقط ستسعد إبنته عفاف.. ولكن لأنها تشبه زوجته جميلة.. واكتشف أيضاً أنه يحب جميلة بشكل جنوني، ولا يمكنه البعد عنها مرة ثانية.. ولذلك سيسامحها عن أي تقصير من جانبها في طاعته في غيابه، وخروجها إلى العمل عند كيلاني الغتت بدون إذنه.. ثم رفع ساعة معصمه ينظر إليها متعجلاً الوقت الباقي على لقائه بعفاف وجميلة.

في الحقيقة لم يكن ما رآه عبد الغني في منامه في حافلته المتحركة مجرد حلم كاذب.. بل كان ذلك جزءاً من الحقيقة الرهيبة، ولكأن القدر أراد أن يحابي أمه مقابل صبرها على فقد أبيه، وينبه عبد الغني ويهيئه نفسياً إلى ما قد يفجعه، ويكون سبباً في فقده لحياته، إذا لم يتماسك في مواجهة الصدمة الكبرى.. لأن جميلة زوجته أصبحت تتاجر بالعملة، وبأشياء أخرى.. وقفزت قفزات خيالية في دنيا السوق السوداء.. فمن يراها اليوم لن يصدق أبداً ـ حتى ولو أقسمت له ـ بأنها يمكن أن تكون هي جميلة زوجة عبد الغني الخجولة المحببة، التي كان يتملكها التوتر والتردد إذا ما كلمت رجلاً غريباً.. حتى أبوها الذي مات بسببها منذ سبعة أشهر ولم تخبر بموته عبد الغني ولا حتى

أمه ولا أي من جيرانها.. أبوها نفسه لو هبّ من تحت التراب فلن يستطيع التعرف عليها.. حتى لو أمكنه التعرف عليها فإنه حتماً سينكرها.. وقد يقتلها.. فهي لم تنسَ ذلك الفزع والرعب الذي استولى على أبيها عندما كانت فتاة صغيرة تركض بشوق وعنفوان ناحية نضجها الأنثوي.. كان ذلك النضح المثير لنهديها الطازجين يلفت أنظار من يلمحها وتظل ملتصقة بهما حتى تغيب عن عينيه.. كانت هي لا تستشعر القيمة الحقيقية لهما.. لأنها لم تكن قد انتبهت إلى جمالها الأنثوي بعد.. كانت أحلامها تنحصر في الحصول على شهادة الإعدادية العامة التي تستعد لها.. ومن بعدها الثانوية ثم الجامعة.. لم يكن الحب والزواج قد طافا بخيالها بعد.. كانت ترى مع زميلاتها في المدرسة خطابات عاطفية ملوّنة ولها رائحة عطر.. كل واحدة تتحسسه بنشوة وسعادة ثم تنزوي في جانب مبتعدة عن بقية زميلاتها لتقرأه.. بعضهن كانت تخشى المتطفلات، أو الناظرة لذا كانت تسرع به إلى دورة المياه.. تغلق خلفها الباب ثم تفض رسالتها، وتقرأها على مهل.. ثم تخرج سعيدة، تسارع كل واحدة إلى جميلة العاقلة لكي تحكي لها.. وهي ترثي لحالهن.. كانت تنصحهن بالإهتمام

بالدراسة أولاً.. كن يضحكن منها ساخرات في مداعبة قائلات لها: أنت تذكريننا دائماً بنصائح بابا وماما.. هو كل حاجة في الدنيا الدراسة وفقط.. أما سمعت قول الشاعر «إن أنت لم تعشق وقلبك لم يعرف الهوى.. فقم واعتلف تبناً فأنت حمار.» لم تكن تأبه بكلامهن.. فهي بالإضافة إلى طموحها الدراسي الذي سيجعل منها في يوم من الأيام طبيبة مشهورة ولن تتزوج قبل أن تكمل دراستها وليس مثلما فعلت أختها الكبرى.. ترتعد من أبيها المتشدد.. فهي لو طاوعت نفسها وفعلت مثلما تفعل زميلاتها وقبلت خطاباً واحداً من أولاد الجيران الذين يقفون منتظرين لها في الذهاب إلى المدرسة وعند عودتها.. وعرف هذا أبوها أو أخوها ممدوح فهو حتماً نهاية أجلها.. سيذبحها أبوها كما كان يردد «البنت التي لا تحافظ على شرفها وسمعتها تستأهل القتل أمام الجميع».. ولذلك كانت تؤثر بقاءها حية على أن تفعل مثلما يفعلن.. إلى أن كان ذلك اليوم الذي مزح معها أخوها ممدوح قائلاً معجباً بجمال أخته وفي وجود أبيها «أختي جميلة تنفع ممثلة سينيما....» وقبل أن يكمل مديحه لها نهض أبوه كثور هائج وراح يكيل له

اللطمات واللكمات.. كما لو أنه قد قرر قتله عقاباً له على مجرد فكرة قد عبرت أفق خياله قد يترتب عليها العار، وشرع يصرخ فيه بفزع ورعب لم تره من قبل يسيطر عليه هكذا، ويسب ويلعن وهو يلهث بطريقة جنونية: أو يسرك يا قواد أن تتاجر أختك بجمالها وجسدها؟!!.. ولم يجبه ممدوح يومها كان يتكور أمامه مرتجفاً مصفراً كأنه يخرج أنفاسه الأخيرة.. بينما خيوط الدم الحمراء كانت تتدفق من فمه.. ويبدو أن ارتعاش ممدوح قد انتقل إليها بالعدوى لأنها لم تدر لماذا كان ينتفض جسدها كله، وثبتت في مكانها لم تستطع أن تبارحه، وهيىء لها أن أباها لا بد سيفرغ من ممدوح، ويستدير إليها خانقاً إياها كي يمسح عاره بيديه.. ولكن الحمد لله لم يسفر هذا الهياج العاتي إلاّ عن إصدار أوامر أشبه ما تكون بأوامر عسكرية من قائد في ميدان الحرب إلى جنوده.. أوامر نهائية غير قابلة لأي مناقشة أو تعديل.. حيث طلب بشكل صارم ألا تظهر أمام أحد بدون حجاب حول وجهها يستر شعرها.. وأن ترتدي الملابس الطويلة التي تستر جسدها، حتى في البيت أمامه هو وأمام أخيها.. كما التفت إلى أمها منبهاً وآمراً لها بأن تستعد وتجهز نفسها، لأنه قرر أن ننتقل جميعنا من هذه الشقة

الضيقة.. لأننا سنستأجر شقة واسعة بحيث يكون لكل واحد منا حجرة مستقلة.

ورغم أنها حمدت ربها يومها لأن الموضوع انتهى إلى هذا الحد.. إلا أنها كانت ترفض الحجاب من أعمق مكان في بركان رفضها، والذي لا تملك أن تفجره في مواجهة قوة أبيها القاهرة، وجبروته العاتي.. كانت تبكي في حزن صامت، لكن أمها كانت دائماً تحاول التخفيف من حدة تلك الأوامر القاسية لأبيها، بأن تجعل منها أشياء مشروعة وواجبة ومحببة.. راحت تكرر على أسماعها الواجب في طاعة الأبوين.. وأن طاعتهما من طاعة الله.. ولو أن أحداً أغضب أبويه فإن الله سيعاقبه في الدنيا بالخراب، وفي الآخرة بالعذاب في نار جهنم.. ثم إن ما يطلبه أبوها هو لخيرها ومصلحتها هي.. ففضلاً عن إرضائها لربها.. فإن الجمال نعمة يجب أن نحافظ عليها، وإلا تحول علينا نقمة.. وروت القصص والحكايات الكثيرة الكثيرة عن أناس أعطاهم الله نعمة الجمال فلم يحافظوا عليها.. فاستردها منهم.. والمحافظة على الجمال لا تكون إلا بستره أمام الغرباء.. لا يجب أن يرى جمال المرأة غير زوجها فقط..

وقع ذلك في الوقت نفسه الذي انتقلت فيه معلمة اللغة العربية التي تحبها وجاءت بدلاً منها معلمة عانس ومتقدمة في العمر كانت ملامحها المتصلبة كرجل جبلي تفزعها؛ ويبدو أن إحساسها هذا قد ارتسم بالرغم عنها على وجهها ما جعلها تبادلها عداء غير مقصود بعداء مقصود.. وراحت تصفها دائماً بالغباء.. وأنها لن تصلح في شيء.. لو فعلت خيراً لجلست في بيتها وتزوجت.. فمثلها لا يصلح للتعليم.. كانت دائماً تسخر منها وتقضي جزءاً كبيراً من الحصة في الإستهزاء والسخرية منها وهي لا تستطيع أن تواجهها خوفاً من أبيها الذي سيلقي باللوم والذنب عليها كالعادة.. وكان رد الفعل الطبيعي لديها أن تكره مادة اللغة العربية.. لم تعد لديها أية رغبة في فتح كتاب واحد للمادة.. كان ذلك يشعرها بالضيق والإكتئاب الدائم.. مما ترتب عليه كرهها للمواد الأخرى و فقد شهية استيعاب أو استذكار الدروس.. مما كان له الأثر الواضح في هبوط مستواها في الدراسة، كراهيتها للمدرسة والدراسة؛ حتى أنها رسبت لعامين متتاليين في شهادة الإعدادية العامة.. وكانت فرصة متاحة لوالدها كي يحتفظ بها في البيت تحت عيني أمها في أمان.. وقد شدّد في عدم الوقوف في

البلكونات والنوافذ آمراً أمها وحدها المسئولة عن نشر الغسيل والظهور في البلكونة.. وخاصة أن هناك شاباً دائم الوقوف في البلكونة المقابلة متظاهراً بالمذاكرة البريئة.. لكن نواياه الشريرة لا يعلمها أحد غير أبيها وحده.. حتى (التلفزيون) كانت لا تشاهده إلا في غياب أبيها فقد كان يكرر دائماً ومؤكداً أن هذا (التلفزيون) هو وباء العصر الذي يصيب المجتمع بانحلال خلقي.. ولذا فإن الإسم الحقيقي له هو المفسديون.. إنه يعلّم أشياء قبيحة.. وكانت أمها تصدق على كلامه.. لا تعارضه أبداً.. متحسرة على ذلك الزمان الجميل الذي ولى وذهب وأخذ الخير معه وقلت البركة.. يوم أن كانت البنت تعرف أنها بنت.. كانت تُعدّ للزواج منذ صغرها تتعلم في بيت أهلها ما سينفعها ويفيدها في حياتها مع زوجها وأولادها.. ويوماً بعد يوم بدأ يتردد في البيت أن البنت للزواج.. وبدأت أمها تخرج منفردة لشراء بعض الأشياء لتجهيزها، حالما يأتي العريس بينما كان يجلس أبوها معها في البيت كحارس، يتظاهر بقراءته للجريدة التي في يديه، بينما عيناه كانتا تتابعانها من فوق النظارة.. فهكذا نظم نوبات الحراسة عليها بينه وبين أمها.. كانت تسمعهما أحياناً وخلسة كأنهما يتضرعان إلى الله

بأن يريحهما منها بإرسال إبن الحلال.. كانت تسخر بينها وبين نفسها من حالها هذا.. متسائلة «ومن أين سيأتي إبن الحلال.. إذاكنت لا أرى أحداً ولا أحد يراني» ولذلك لم تجد وسيلة أفضل من خيالها تستلهم فيه إبن الحلال.. تمنته أن يكون مختلفاً كل الإختلاف عن أبيها وأي فرد من أهلها.. حلمت به يأتي لها من مدينة بعيدة عن أهلها.. فهي لا تنوي بينها وبين نفسها أن تأتي لزيارة هذا السجن مرة ثانية، ستتعلل بأسباب كثيرة: شغل زوجها المتواصل، مرض الأولاد وقرفهم.. شغل البيت.. تخيلته أنه سيكون طويلاً عريض الصدر يفتح الزر العلوي من قميصه ليطل منه الشعر الكثيف الأسود في فتوة.. سيكون متفتحاً واثقاً من نفسه.. قادراً على حمايتها،، لن يتذرع بالخوف عليها من الله أو من الناس كي يكفنها ويحفظها محنطة وداخل فترينة زجاجية كالمومياء كما يفعل أهلها.. وهم في الحقيقة يخافون على أنفسهم هم.. سيكون من الإسكندرية ويحب أن يقضي معظم وقته على الشاطىء.. لن يتخفى خلف الغيرة ليتستر على ضعفه هو.. سيتركها تخرج وتدخل كما تشاء.. سيشتري لها أحدث (الموضات).. سيجردها من هذه الأكفان المسماة بالحجاب.. تمنت أن يكون طبيباً عائداً لتوه

من أوروبا بعد إنهاء دراسته.. ربما كان ثرياً.. سيسافر بها إلى بلاد مختلفة من العالم.. لا بد لها من إجادة اللغة الإنجليزية حتى يمكنها التفاهم معه والتفاهم مع الآخرين في البلاد الأجنبية.. لابد أن تكون لائقة له، ومناسبة لمستواه الثقافي.. لذلك فكرت في محاولة الدراسة من جديد..
طلبت من صديقتها الوحيدة وجارتها صفاء أن تحضر لها كتب الصف الثالث الإعدادي؛ حتى يمكنها الإستذكار، ودخول الإمتحان آخر العام مع طلبة المنازل.. وفي الحال أحضرت صفاء الكتب المطلوبة.. فهي تحبها، وتعرف مستواها الذكائي.. فلقد كانت زميلة لها في الفصل نفسه.. منذ ثلاثة أعوام.. ولكن الحظ السيء جعلها ترسب عامين متتالين.. في حين أنها واصلت تعليمها في الثانوية العامة.. بعد أن نجحت من أول مرة في الإعدادية.. ولم تنس جميلة ما أثاره تصرفها هذا وتفكيرها في العودة إلى المدرسة من سخرية واستهزاء أبيها منها وراح يردد متهكماً «والله بعد لما شاب.. ودوه الكتاب» وكعادة أمها وسلبيتها في مواجهة كل الأمور.. صدقت على سخرية أبيها موضحة أن.. ولم تنته أمها من توضيح النجاح الحقيقي للمرأة إلا كعادتها بضرب المثل بأختها الكبرى والوحيدة

سامية، التي تزوجت عندما كانت في الصف الثاني الثانوي من مدرس اللغة الإنجليزية الذي كان يدرس لها في الصف.. لم تكمل دراستها، ومع ذلك هي أسعد زوجة في العالم.. ـ صلاة النبي أحسن ـ أطفالها الصغار تثب من حولها في بيتها مثل الكتاكيت النشطة.. بينما زميلاتها اللاتي أكملن تعليمهن في الجامعة يتضورن أرقاً وتعباً وعدم استقرار.. فلا زواج ولا بيت ولا أولاد.. محرومات من لذة الدنيا ونعيمها.. والحياة تطحنهن كل يوم في العمل والمواصلات..

وهكذا كان في بيت جميلة فريق كامل متكامل يتكون بتفاهم ليس له مثيل من أبيها وأمها لممارسة أي نوع من أنواع الضغوط والإحباط.. والقدرة الهائلة على التيئيس وتحطيم الآمال الكبار وقتل الهمم.. لذلك تخلت جميلة عن فكرة مواصلة الدراسة.. ولم يعد لها من وسيلة في يدها لتحقيق أحلامها في زوج المستقبل الذي رسمته وحفرته بكل دقة وتأنٍ في خيالها غير الوقوف أمام المرآة، والإهتمام بشكلها وجمالها.. كانت كل يوم بعد أن تفرغ من عمل البيت ومساعدة أمها ليس لها اهتمام آخر غير دخول الحمام، والوقوف أمام المرآة تخلع فستاناً لترتدي فستاناً

آخر.. تتأمل نفسها طويلاً في كل واحد.. كانت تفتح صدر الفستان فيتدفق من تحته كتلتان متماسكتان ومتكورتان من الزبد الأبيض.. كانت تقف متأملة لهذا التناسق والتناغم بين نهديها.. تشد قامتها وتفرد نفسها في مواجهة المرآة فيزداد تدفق الزبدة البيضاء المجمدة ذات الملمس الناعم الدافىء.. تهمس لنفسها «ما أجملها في فساتين السهرة المفتوحة.. ولكن أي فستان للسهرة في هذا السجن!!» ويزداد شوقها وولعها وتعجلها إلى الزواج الذي سيخلصها من هذا المعتقل،وترد بينها وبين نفسها في عزم أكيد ما سبق لها ونوت عليه وهو عدم العودة إلى هذا البيت أبداً، مهما حصل من زوجها.. حتى ولو ضربها.. حتى ضرب زوجها سيكون أكثر رحمة من نظرات الشك والرعب التي تلمحها في عيني أبيها الذي يتحفظ في كلامه وضحكه معها.. كأن مجرد كلماته الحانية الرقيقة لها، ستدفعها إلى الفساد والإنحراف؛ لأنه سيكون لوناً من ألوان التدليل.. والتدليل كما يردد دائماً يفسد البنات.. ولكنها كانت تقرر أيضاً أن تربيتها لأولادها وبناتها ستكون تربية صحيحة وليس مثل هذه التربية.. ستربيهم تربية حديثة متفتحة بعيداً عن هذا التعقيد.. ستمنحهم كل ثقتها بلا

حدود، لن تكرر معهم هذه المأساة التي تعيشها.. وستقف في وجه زوجها إذا ما أراد أن يظلم أولاده.. لن تفعل مثل أمها توافقه على كل شيء، حتى ولو كانت غير مقتنعة بما تفعل أو تقول.. ستعلم أهلها بطريق غير مباشر أن الثقة هي الشيء الوحيد الذي يضمن للأبناء السلوك الصحيح، وعدم الوقوع في الخطأ، وليس الخوف عليهم، والشك في تصرفاتهم.. وتواصلت أحلام جميلة وأفكارها.. وخاصة بعد أن خلا البيت إلا منها وأمها وأبيها بعد أن تخرّج ممدوح في معهد المعلمين وتمّ تعيينه مدرّساً في إحدى القرى البعيدة ولم يعد يأتي إليهم إلا في يوم الخميس من كل أسبوع، ويسافر عائداً في صبيحة كل يوم سبت.. وبذا كان يتحول بيتهم في يومي الخميس والجمعة إلى احتفال به.. تؤجل الأكلات الحلوة إلى يومي الخميس والجمعة حتى يأكل معنا ممدوح.. ويؤجل شراء فاكهة الموسم إلى يومي الخميس والجمعة حتى يأكل معنا ممدوح.. يؤجل الغسيل إلى يوم الخميس حتى نغسّل ملابس ممدوح ونكويها.. وفي كل الأحوال لم تكن جميلة غاضبة لذلك، أو حاقدة عليه بسبب هذا الإهتمام، وخاصة أنه أخوها الوحيد الذكر.. بل كانت تشعر تجاهه بصداقة وحب.. كانت تنتظر يومي

الخميس والجمعة من كل أسبوع بشوق جارف.. كما لو كانت العطلة الحقيقية من كل هذا التعب والملل الذي ينخر في نفسها.. كانت معه تتخلص من هذا السأم والضيق، ومضغ أفكارها المعادة والمتكررة عن الزواج والبيت والأولاد.. ففي كل مرة كان يأتي لها أخوها بحكايات جديدة مضحكة ومسلية، عن الناظر والمعلمين والفلاحين والتلاميذ الصغار.. ولكم ضحكت كثيراً عندما حكى لها عن تلك التلميذة الصغيرة في الصف الأول الإبتدائي، التي أحضرت إلى أخيها ممدوح بعضاً من الحلوى مقسمة عليه بشكل جاد، كأنها رجل كبير أن يعطي هذا الحلوى إلى أطفاله.. وهو الذي لم يتزوج بعد.. كان يكلمها عن زميل إسمه عبد الغني أبو ثروة.. ضحكت من اللقب في استغراب وتساءلت إن كان اسمه ينطبق على واقعه، وإن كان غنياً بالفعل؟.. وأوضح لها يومها أنه إنسان مهذّب.. وليس غنياً، بل تربّى يتيماً بعد أن مات أبوه في حرب اليمن وهو لم يزل بعد تلميذاً بالإبتدائي.. ولم يكن هذا الموضوع يهم جميلة في شيء لدرجة أنها نسيته في الحال.. إلى أن عمّ الحزن والقلق والخوف في أحد أيام الخميس، عندما رجع أخوها ممدوح من القرية التي يعمل بها، وهو يضع يده

فوق جبهته شاكياً بألم من صداع حاد.. عرض أبوه الذهاب معه إلى الطبيب.. لكنه هوّن من الأمر زاعماً أنه مجرّد صداع، وسيذهب بعد قليل.. لكن الصداع زاد، والألم تفاقم وسقط ممدوح على باب الحمام.. وتفجر البيت في لحظة واحدة بالرعب والدموع والتضرع إلى الله، أن يحفظ لنا الإبن الوحيد.. وأسرع أبي وأحضر الطبيب الذي طمأننا بأنه مجرد إلتهاب حاد في البلعوم.. ووصف له العلاج والراحة لمدة أسبوع.. اتصلت به عطلة نصف العام الدراسي.. وبدأ فعلاً يتماثل للشفاء ويعود إلى حيويته مرة أخرى.. حتى كان ذلك اليوم الذي سمعت طرقات مألوفة على الباب الخارجي للشقة.. أيقنت أنها طريقة صديقتها صفاء في الطرق على بابهم.. وخاصة أنها أتت من الجامعة التي تدرس فيها الآن؛ لقضاء عطلة نصف العام مع أسرتها.. ولذلك أسرعت إلى الباب لتفتحه، تاركة نفسها على سجيتها.. فلم تتحفظ وتضع على رأسها غطاء الرأس وتلملم فيه شعرها.. بل تركته ينحدر فوق كتفيها وظهرها في دلال.. وكأنها تستعرضه أمام صديقتها التي لا تمتلك مثله.. ولكنها صعقت وارتبكت وكتمت ضحكة كانت ستفلت من بين شفتيها عندما فوجئت برجل أسمر طويل

يحمل فوق رأسه كتلة من الشوك الأسود المعفر تبينت بعد ذلك أنه لم يكن غير شعره.. أما هو فقد بدا لها كعود القصب الممصوص.. وبدا عليه هو الآخر الإرتباك.. ظل واجماً محملقاً فيها للحظات قبل أن ينطق متعثراً: أليس هذا منزل.. الأستاذ ممدوح أحمد؟ وسألته عن إسمه فقال بتردد: عبد الغني.. عبد الغني أبو ثروة.

عندما سقطت عينا جميلة على وجه عبد الغني المهشم وشعر رأسه الشوكي وطوله النحيف، لم يدر بخلدها بأي صورة من الصور، ولا مجرد فكرة مجنونة، أو بلهاء أن هذا الشاب يمكن أن يكون في يوم من الأيام زوجاً لها، وأباً لطفلتها.. ولكن ـ كما يقولون ـ أبعد الأشياء عن التوقع أقربها إلى الوقوع ـ فلقد انسحبت من أمامه في الحال، طالبة منه الإنتظار لحظة.. أسرعت إلى الداخل قبل أن يفطن أبوها أو أخوها إلى أنها قابلت الرجل الغريب مكشوفة الشعر غير محتشمة.. سترت رأسها بالحجاب، ومن ثم أسرعت إلى أخيها ممدوح الذي كانت دماء العافية قد بدأت تتدفق في عروقه ليشع علينا وجهه بالصحة والسعادة والهدوء النفسي الذي افتقدناه في الأيام الخالية.. همست إليه بأن رجلاً طويلاً ونحيفاً يسأل عنه، ويقول إن اسمه عبد

الغني أبو ثروة.. انتفض ممدوح يومها فرحاً مهرولاً إلى الباب مرحباً به ولائماً له لهذه الأشياء التي أتى بها معه من البلد.. وفرحت أنا كثيراً بمنظر البطتين الحيين اللتين طلبت مني أمي وضعهما في الحمام، حتى يتم التصرف فيهما طبقاً لما يراه أبي بعد أن يعود بسلامة الله من العمل.. سألت أمي عن نوعي البطتين، فأخبرتني أنهما ذكران، فأبديت تحسري موضحة أنه لو كانا ذكراً وأنثى لكنا تركناهما يتكاثران، ونبني لهما عشة جميلة فوق سطح المنزل، أو في (البلكونة).. لحظتها تطلعت أمها إليها بحنان غير متوقع، وراحت ترنو إليها بحب وشوق غير طبيعي، ثم سألتها رأيها إن كانت تحب تربية الطيور.. وإذا ما كانت تتمنى أن تعيش في الفلاحين.. ولم تفهم جميلة ماعنته أمها من الوهلة الأولى، لأنها فعلاً كانت مستغرقة تماماً في أفكارها حول ذكري البط وما سيقرر أبوها بشأنهما.. ولكن يبدو أن أمها قد بزغ في سماء فكرها أمل، لم تشأ أن تصرح به لأحد إلا لزوجها عندما جاء من العمل، وتناول الغداء مع ممدوح وزميله الذي قدم لزيارة إبنه المريض متحملاً مشاق السفر لمسافة بعيدة، ومعه تلك الزيارة.. بعد تردد طرحت عليه الرأي.. كأنها تتمناه «لو أن الأستاذ عبد الغني يكون من

نصيب جميلة يكون ربنا رضي عليها وعلينا» وكأن هذا الكلام كان مفاجئاً لزوجها؛ فراح يتابعها بنظرات فضولية كأنه يطلب المزيد من التوضيح، فأضافت مدعمة لوجهة نظرها ومؤيدة لأملها «إبن حلال.. تقي وعارف ربنا.. أول شيء فعله عندما أتى سأل عن القبلة وتوضأ وصلى الظهر.. وأيضاً لا يشرب سجائر.. وباين عليه هادىء ومنكسر وليس من شباب هذه الأيام» هزّ زوجها رأسه عدة هزات متساوية رتيبة، وهو يقلب فكرة زوجته في عقله.. ثم قال كأنه يوافقها على رأيها.. على أي حال لو طلبها لن أرفض.. فسارعت في فرحة لأن زوجها أيّد وجهة نظرها متحمسة «المثل يقول أخطب لبنتك.. ولا تخطب لإبنك.. يعني أن تظهر اهتماماً به.. لا تدعه يسافر إلى بلدته الليلة.. شدّد عليه لكي يبيت مع ممدوح في حجرته.. وستكون فرصة لكي تجلس معه، وتعرفه وتدرس أخلاقه عن قرب.. وأنت يا أبا ممدوح كلك نظر وفهم» ومرة أخرى اجتاحتها السعادة لأن زوجها لم يعترض على رأيها ومعنى ذلك أنه موافق وسيفعل ما أشارت عليه به.. كانت هي عادته في الموافقة.. كأنه يعتبر الموافقة الصريحة على رأي زوجته عاراً وعيباً لا يليق به أن يفعله.. وهكذا تصرف أبوها وأمها من

جديد كفريق متكامل متفاهم.. فعلى حين تفرغ أبوها للترحيب غير العادي بالأستاذ عبد الغني بطريقة أثارت دهشة إبنه ممدوح الذي كان يختلف معه دائماً، ويصل إلى حد اللوم والتأنيب إذا ما أحضر أحداً من أصدقائه إلى البيت موضحاً له بأنه لا يمانع في الصداقة.. ولكن يجب أن يكون اللقاء بعيداً عن البيت.. لأن البيت فيه بنات.. ولازم يحافظ على أخته وعلى سمعتها بعدم دخول أحد من الأصدقاء.. حتى لا تكون هناك فرصة للناس وللقيل والقال.. ولكن الآن ممدوح يرى أباه يتفرغ تماماً للترحيب بصديقه متعمداً التحدث معه في مختلف الموضوعات الهامة وغير الهامة.. وبلغت دهشة ممدوح مداها عندما أقسم أبوه بشدة وبأغلظ الإيمان على زميله عبد الغني لكي يبيت عندهم.. لأن الطريق طويل ولا يجوز أن يعود في الليل.. ثم إنه يشعر ناحيته كأنه إبنه ممدوح.. وأن قلبه قد فتح له كما لو كان يعرفه منذ سنوات.. وأنه من العار أن يتركه يذهب دون أن يأخذ تمام واجبه.. وبين وقت وآخر كانت تدهش جميلة من تصرف أبيها غير المعتاد، عندما ينادي عليها طالباً الشاي.. أو القهوة.. وكانت هي بطبيعتها تخجل من تقديم مثل هذه الأشياء إلى الغرباء والرجال الذين لم تألف

رؤيتهم.. ولكنها تفاجأ بإصرار أمها على ضرورة دخولها بالشاي.. مدعية بأن خجلها هذا منه دليل على أنها تهابه وتعجب به.. ولكأن أمها بتلك الكلمات قد صفعتها على وجهها بكلتا يديها فجأة.. ما جعلها تعيد في ذاكرتها بسرعة كل التلميحات التي قيلت أمامها، منذ أن اقتحم زميل ممدوح الفلاح بزيارته عليهم بيتهم وحياتهم.. بدأت تفهم سؤال أمها لها في الصباح عما إذا كانت تحب الحياة في بلاد الفلاحين.. وإسهابها الممل في مدح الفلاحين وخيرهم.. وكيف أنهم لا يعرفون للأشياء سعراً.. الأرز والبيض الطازج والزبدة والجبنة والطيور البلدية بطعمها الشهي، وليس مثل دجاج الجمعية الخالي من الدسم.. كما إن هذا الترحيب والتصرفات التي تبدو شاذة إذا ما كانت من أبيها، وإصراره على أن يبيت هذا الشخص معهم في بيت واحد.. لم يكن له غير معنى واحد «هو أنهم عقدوا النية معاً على التخلص مني وإزاحتي من البيت بتزويجي منه» وانتابها رعشة وخوف عندما سمعت أمها تهمس لها في أذنها في تضرع «ربنا يجعل لك معه نصيباً».. يكون السعد قد كتب لك» شعرت بموجة عارمة من الإشمئزاز والإمتعاض تجمد كل حواسها.. فعبد الغني على وجه

التحديد لم يكن في يوم من الأيام فارس أحلامها.. بل على العكس كان كل شيء فيه نقيضاً لأحلامها.. فهو أولاً فلاح وليس من الإسكندرية.. ثم إنه لا يمت إلى الوسامة التي كانت تحلم بها بأي سبب .. ثم إن هذا الحياء وغض البصر هذا الذي يبدو أنه أعجب والديها، بالإضافة إلى محافظته الشديدة على الصلاة أمامهم والإكثار من التسبيح والدعاء عقب كل صلاة بصوت عالٍ، كأنه يعلن لكل من في البيت عن ورعه وتقواه.. كل ذلك حرّك في أعماقها الرعب تجاهه.. وهتفت لنفسها في ذعر وأسى حقيقي.

«معنى هذا أنني سأخرج من مقبرة إلى مقبرة.. لن أشعر بالحياة أبداً..» .. وراحت تبكي وتنتحب عندما ذهبت إليها أمها بعد أسابيع تزف إليها خبر التقدم لخطبتها.. صرخت يومها لأول مرة في وجه أمها ساخطة قائلة «ليتني ولدت في أيام الجاهلية.. كنت وئدت وأنا طفلة صغيرة.. كان ذلك أفضل وأكرم لي.. بدلاً من تركي هكذا تنمو مشاعري وأحاسيسي.. وبعد ذلك تقتلوني بهم.. الوأد كان أكثر رحمة!!» ولم تستطع أن تنسى الثورات البركانية والزلازل والإنكسارات التي فاضت بها تضاريس وجه أمها.. كانت

كمن يرى موته أمام وجهه يتقدم منه بإصرار شيئاً فشيئاً.. كل جمود الدنيا سمّرها في مكانها للحظات طويلة شاخصة إلى إبنتها القطة المغمضة، وقد تحولت فجأة ودون مقدمات إلى حيوان بري شرس.. وبعد إنقباض أنفاسها وتقلص معدتها التي وضعت يدها فوقها تماماً، كما لو كانت تحول دون إحساسها بالألم؟!!.. تمخضت عن صرخة دامعة مرتعبة «أجننت يا بنت؟!!.. كيف خرج منك هذا الكلام؟!! الحمد لله الذي جعلك تنطقين به أمامي أنا وحدي ولم يسمعه أبوك.. وإلا كان وأدك بالفعل كما تقولين.. أي مشاعريا مجنونة يا قليلة الأدب؟!!.. لكن الحق ليس عليك.. الحق علينا عليّ أنا.. لأنني أتستر عليك وأتركك أمام (التلفزيون) دون علم أبيك.. وهذه هي النتيجة.. تتكلمين بكلام الممثلات.. أريد أن تذكري لي عيباً واحداً في عبد الغني.. رجل مثل هذا متعلم وموظف محترم وعلى خلق لماذا نرفضه.. هاتي لي سبباً واحداً معقولاً لرفضه وأنا سأقف معك..»

وكعادتها بعد كل تفاقم آمالها وثورتها تسارع جميلة وتلقي بهلب سفينتها على شاطىء الإستسلام.. رضخت لاختيار أبيها وأمها.. حمت نفسها من التحقيقات

والإستجوابات والإتهامات والشكوك التي ستواجه بها من أبيها، وأنه حتماً سيسألها عن سبب الرفض، ويستطرد قائلاً إن الإنسان لا يرفض في العادة شيئاً إلا إذا كان هناك شيء آخر أفضل منه.. وسيشدد من خلال هذا الإستنتاج على معرمة هذا الشخص الأفضل من عبد الغني.. وأين رأته؟.. ومتى؟.. وسينهال بالسباب لها ولأمها التي لم تحسن تربيتها، ومراقبتها في أثناء وجوده بالعمل في مكتب وزارة الصحة.. ولذلك لم تفكر في الإعتراض المباشر، ومضت فكرة في رأسها لم تكتشفها إلا بعد أن تمت الخطبة بالفعل.. فهي تعلم أن الفلاحين وخاصة عبد الغني هذا مرتبط ارتباطاً قوياً بالقرية التي يعيش فيها.. وأمه. ولذلك فكرت في وضع العقدة أمام المنشار.. فهي إن كانت توافق على عبد الغني لأنها لا تعرف شاباً غيره.. إلا أنها لا يمكن أن تسكن وتقيم في القرية.. ليس لها إلا شرط واحد وهو أن يستأجر لها شقة في المدينة.. وتكهرب الجو.. بينها وبين عبد الغني الذي حمل هذا الشرط منها همّاً ثقيلاً في قلبه، وعاد إلى أمه دون أن يخبر به أحداً من بيت جميلة.. وعاشت جميلة ينتابها شعور بالخوف والقلق والفرح في الوقت نفسه .. فربما كان هذا الإعتراض سبيلاً مناسباً

للتخلص من هذا الحفار للقبور الذي يصرّ على تسلمها من مدافن أبيها لكي يعيد دفنها في مقبرته هو.. لكن قلقها الذي ظل يساورها كان نابعاً من أن هذا الفلاح قد يتخلى عن عاداته وينفذ رغبتها وشرطها ويجتاز العقبة.. وكان الإحساس بخيبة الأمل هو فراشها وغطاؤها لمدة أسابيع عندما عاد إليها بسرعة يثب فرحة وابتهاجاً، وفي مجاملة لها يصارحها بأنه موافق على شرطها، وأنه بالفعل قد استأجر الشقة في المدينة المجاورة لقريتهم، والتي تبعد عنهم حوالي خمسة كيلومترات.. ولم تيأس من إمكانية التخلص منه في أي وقت طالما أن الزواج لم يتم بعد.. وأن الخطبة قد جعلت للتعارف بين الناس.. فإذا لم يتم التفاهم ذهب كل واحد إلى حاله.. ولذا كانت دائماً تضع العقبة تلو العقبة، وهو يأتي بالحل بعد الحل.. حتى تسرب إلى نفسها الكثير من اليأس من كيفية التخلص من هذا الرجل، في الوقت نفسه الذي بدأت تسمع في القلب بعض النبض الضعيف تجاهه بالرضى.. سواء بسبب هذا الإصرار الذي يجعله يزيل كل عقباتها المفتعلة من طريق زواجهما.. أو بسبب الإيحاءات المتواصلة من أمها بأنها ستكون من أسعد الزوجات لأن زوجها يحبها حباً بلا حدود.. وماذا تتمنى

المرأة أكثر من زوج يحبها ويصونها ويقدرها، والمثل يقول «إذا أحبتك الحية تلفح بها» .. فما بالك بشاب مدرّس محترم مثل عبد الغني مهذب ولا تخرج منه العيبة.. وأخيراً استطاعت جميلة أن تحسم الأمر مع نفسها، لتستريح من هذا المد والجزر الذي لا طائل من ورائه، غير القلق والهم، عندما سألت نفسها سؤالاً صريحاً (إذا لم أوافق على عبد الغني .. فعلى من أوافق .. إنني لا أرى أحداً ولا أحد يراني.. ثم إن البنت كما تقول أمي لها فترة من العمر تتألق فيها مثل الوردة النضيرة.. فإذا لم تستغل هذه الفترة وتتزوج فيها فإنها تفقد فرصة عمرها وربما لا تتزوج أبداً وتصير عانساً).. وعلى إثر موجات الرعب التي ضربت خيالها، عندما لمع به صورة معلمة اللغة العربية العانس التي كرهتها، وكرهت الدراسة بسببها.. أسرعت مستسلمة خاضعة طائعة.. وتم الزواج.. وذهبت إلى شقتها التي أثثها لها عبد الغني طبقاً لشروطها ولعراقيلها التي كانت تضعها في نوع الجهاز ولونه وعدده أحست أنها صارت حرة بشكل كبير جداً.. فلم تعد مهددة ومحاصرة بنظرات الشك والإرتياب والخوف التي تحاصرها من أبيها أو أمها أحياناً.. فليس معها في الشقة غير زوجها الذي يتمنى أن يجيبها على كل ما

تطلبه.. وكذلك أمه، وهي إنسانة طيبة منكسرة كانت تردد دائماً أنها تحب إبنها، ولذا فهي تحب كل من يحبه إبنها.. وكانت تكرر لها أن من يفتح قلبها يجد فيه إثنين فقط عبد الغني إبنها، وكذلك جميلة زوجته، ولم تكن هذه الكلمات الحلوة التي كانت ترشو بها أم عبد الغني كافية لكي ترضي جميلة عنها.. لذا لم تتورع في التكشير والتجهم الدائم في وجهها، وخاصة في غياب إبنها.. ولم تفتأ بين الحين والآخر أن تلدغها بكلمة بذيئة أو ساخرة منها لجهلها أو لأنها فلاحة.. وقد ازداد قرفها منها عندما كانت تمر بأشهر الحمل الأولى حيث نهرتها بعنف مرة، وكأنها تعلمها الأدب عندما كانت تمص بعض عظام السمك الذي تأكله وصرخت قائلة «كفاك قرفاً.. إنك تسببين لي.. الغثيان.. طريقة أكلك تضايقني» ولم ترد عليها أمه.. فقط دمعت عيناها.. وتوقعت جميلة أن تشكو تصرفها هذا إلى إبنها.. لكنها لم تفعل.. وأخذت تكرر شوقها للسكن في بيت القرية.. وأن صدرها لم يرتح إلى هواء المدينة.. وانسحبت من حياتهما بعقل ودون أية مشاكل تذكر.. وعادت لتقيم بمفردها في بيت البلد.. ولكن عبد الغني كان يصمم على الذهاب إليها في كل يوم جمعة.. ولم تكن جميلة تمانع

باعتبارها مجرد نزهة في الأرياف، وتغيير جو الشقة التي حبست فيها بعد بيت أبيها.. ولكن كانت تصبر نفسها بأن الذي يرى بعين واحدة أسعد حالاً ممن لا يرى مطلقاً.. وأن حياتها مع عبد الغني الذي يصر هو الآخر على الحجاب، وتحاشي النظر من النوافذ أفضل ألف مرة من بيت أبيها، فهي يمكنها مناقشته والأخذ والرد معه، بعكس الحال في العهود البائدة.. وكم دهشت كثيراً لهذا التغير الذي طرأ على أبيها وأمها بعد زواجها.. تلاشت واختفت من عيونها كل نظرات الخوف والرعب والشك التي كانت تسكن فيهما بشكل دائم.. رجع أبوها معها إلى سابق عهده، عندما كانت طفلة صغيرة يدللها، ويجاذبها أطراف الحديث الفاكه، دون تحرج أو حساسية.. ومع ذلك لم ينسها ذلك التغير تلك الأيام السوداء التي كانت مقبورة في بيتهم.. ما جعلها تتمسك بالبقاء مع عبد الغني، حتى ولو لم يكن هو نفسه فارس أحلامها، وبدأت توهم نفسها أن خيالات قبل الزواج كانت بمثابة الطيش نفسه.. وأن الحب قد يأتي بعد الزواج.. ومرت فتر الحمل.. وجاءت عفاف إليهم كفراشة صغيرة سعدت بها سعادة فائقة إلى حد الهوس.. تبلورت فيها كل آمالها، وحياتها، ومستقبلها ـ وبينها وبين نفسها

كانت تحمد الله كثيراً؛ لأن عفاف إبنتها لم تأخذ شيئاً من أبيها في ملامحه.. بل كانت صورة مصغرة من أمها.. من بياض البشرة ونعومتها ودفئها والذين ما زالت تحتفظ بهم جميلة رغم حملها وولادتها.. كانت تطيل النظر إلى عفاف وهي ترضعها من نهديها المتنافسين على الوثب من فتحة جلبابها الذي وسعت من سعة الصدر حتى تتمكن من إخراجه لترضع عفافا في أي وقت ..كانت أمها التي أتت لزيارتها أكثر من مرة تنصحها بعدم إرضاع عفاف أمام أحد حتى لا يحسد ضرعها الضخم الممتلىء، ويجف لبن البنت الصغيرة.. وكانت جميلة تعمل بنصيحة أمها.. تنفرد بعفاف لترضعها، وعيناها لا تستطيع أن تخلعهما عن وجهها الرقيق، وهذا الفم الدقيق الذي يشبه إلى حد كبيرفم جميلة.. يلتقم حلمتها فتشعر بسعادة طاغية، وهي تتخفف من هذا الحليب الذي كان سيتفجر به صدرها لدرجة أنه فاض رغما عنها وبقع ملابسها.. لكن امتصاص عفاف له يعود عليها بالراحة والنشوة والعافية.. فتضمها إلى صدرها بحنان قاتل يوشك أن يزهق روحها، عندما تنسى نفسها وتعتصرها مقبلة إياها في فمها.. وكبرت عفاف.. وأخذت تتعثر في خطواتها الأولى، تسقط وتنهض من جديد وكأنها

تتعثر فوق قلبي أمها وأبيها.. يشهقان بسعادة إذا خطت.. ويشهقان بفزع إذا سقطت.. واستمرت حياتها على هذا المنوال إلى أن كانت الليلة التي عادوا إلى البيت بعد زيارتهم لأختها سامية التي عادت تواً من الكويت مع زوجها المعمار منذ ثلاث سنوات.. كان يبدو على وجه جميلة للإنقضاض وتلتمع عيناها بالتحفز كعيني قطة تستعد للإنقباض على فأر.. ولم يطل الإستعداد.. إذ سرعان ما انقضت على عبد الغني بسؤال استنكاري يحمل معنى التوبيخ: إلى متى ستظل واضعاً يدك على خدك منتظراً للإعارة؟!!.. أخذ عبد الغني بحدة نبرة سؤالها هذا فاستدار إليها مستغرباً مجيباً إليها بسؤال: لا أفهم ماذا تقصدين بالضبط؟.. قالت بتأنيب: ألم تر الأشياء والذهب الذي أحضرته سامية معها من الكويت؟.. فأجابها ببرود مصطنع كأنه لم يفهم قصدها، أو يفهمه ولا يكترث به مما أهاجها وأشعل ثورتها وفجر كل براكينها القديمة الخامدة والحبيسة في جوفها.. فانطلقت كأنها ممسوسة: ألن تشعر بالمسؤولية أبداً؟!!.. ألن يأتي الوقت الذي تعرف فيه أنني زوجة ولي رغباتي الخاصة وأحب أن ألبس الذهب ولا أحب أن أكون أقل من أختي في شيء؟!!.. لماذا لا تنظر إلى المستقبل وتعرف أن إبنتك

في يوم من الأيام ستطلب منك فستاناً، ولن تستطيع إحضاره لها، وتشعر هي بالنقص أمام بنت النجار والسباك ومن سافروا إلى الخارج؟.. إلى متى ستبقى هكذا تضع يدك في مياه باردة؟!!.. لماذا لا تفعل مثل بقية المعلمين المغامرين؟.. تزوّر جواز سفر وتسافر إلى اليمن؟!.. وهنا قاطعها صارخاً إياك أن تنطقي بهذا الإسم مرة أخرى.. لو سمعته أمي ستموت بالسكتة القلبية.. هل نسيت أن أبي مات هناك؟.. ولم تركن كثيراً إلى ما قال.. بل عاودت صراخها: لا تقارن بينك وبين أبيك.. أبوك ذهب في حالة حرب.. لكنك ذاهب في عمل.

ولم تتركه إلا بعد أن نفذ كل ما قالت به.. زوّر أوراقه وسافر إلى اليمن.

اكتشفت جميلة بعد سفر عبد الغني بأيام أنها غررت بنفسها، وخُدعت تحت ضغوط عديدة من الطمع والحقد والرغبة في التملك.. تبين لها بعد سفره أن إلحاحها وإصرارها على سفر زوجها إلى اليمن لم يكن مبعثه منافسة أختها الكبرى في جمع المال والذهب وفقط .. ولكنه كان هذا الدافع الخفي الذي يجعلها دائماً تضع العراقيل في

طريق حياتها مع عبد الغني.. كان هذا الشعور يتنابها بالتمرد عليه، والتصميم على أن تكون كلمتها هي النافذة في بيتها.. لن تسمح أبداً بأن يكون هو صورة من أبيها المستبد.. ولن تكون هي مطلقاً صورة من أمها المستسلمة معصوبة العينين.. ذلك لأنها لن تسمح أبداً بأن تكون روحها عفاف صورة منها في بيت أبيها.. ويبدو أن القدر قد حقق لها الحلم، والرغبة الجامحة عندما وهبها زوجاً يحبها ويحب طاعتها، ولا يأبه كثيراً بهذا الإستبداد المتمكن من تصرفاتها معه.. كان يحنو عليها كأنها أمه التي ضيعت عمرها من أجله، ويرى في طاعتها نوعاً من تعويضها عما سببه لها في الماضي.. ولكن جميلة لم تشعر بهذا الخداع الذي أوقعها في هوة سحيقة من الإحساس بالوحدة والإكتئاب المرهق القاتل بين جدران شقتها، التي تحدت الجميع وصممت على أن تبقى في شقتها، رافضة كل العروض التي طرحت عليها، سواء من زوجها عبد الغني أو أمه أو أهلها، بأن تنتقل خلال فترة سفر زوجها لتقيم مع أم عبد الغني في البلد، أو لتقيم مع أهلها في بيتهم.. لكنها بعناد حاد رفضت كل تلك كل العروض.. حتى أنها ردت متهكمة على زوجها عندما اقترح عليها أن تأتي أمه لتقيم

معها في الشقة أثناء فترة غيابه مخافة من أولاد الحرام والطامعين..حتى تؤنسها في وحدتها ضحكت بثقة زائدة، وهي تضغط على آخر حرف في كل كلمة: المرأة الشريفة المحترمة لا خوف عليها، حتى ولو تركت في وسط سوق من الرجال.. فهي تعرف كيف تتصرف معهم ومتى توقف كل واحد منهم عند حده.. ولم يكن أمام عبد الغني غير الرضوخ كالعادة؛ مخافة على مشاعر زوجته، ومحاذراً أن تتوهم أنه لا يثق في أخلاقها.. ولذلك هدأ من غضبها موضحاً أنه إنما عرض عليها ذلك فقط حرصاً على سلامتها، وراحتها في غيابه.. وبين كلمة وأخرى كانت تذرف من عينيه دموع تلتمع بمشاعر فياضة من لوعة الفراق والخوف عليهم والخوف من المجهول الذي يقدم عليه.. وكررها بإخلاص وصدق لا يتسرب إليه شك «خلال شهر.. وعندما أستقر في مكان العمل سأرسل لكما فوراً لكي تلحقي بي أنت وعفاف.. أنا لا يمكنني العيش بعيداً عنكما.. ولولا أنّ سفري هذا من أجل تكوين مستقبل مادي لك ولعفاف لما سافرت» ولكي يؤكد صدق نيته، اتفق مع أخيها ممدوح على كل الخطوات التي سيتبعها، والإجراءات المختلفة الواجب عملها لكي تلحق به أخته..

وفرحت جميلة بذلك.. ولم يكن لديها أدنى ريب في صدق وعده، فهي تثق في إدعائه بأنه لن يتمكن من العيش بعيداً عنهما مرتاحاً، ولذلك كانت تتأجج ثقة واعتزازاً بنفسها عندما كانت تسمع ذلك، وخاصة في وجود أهلها.. ولم يكن يعربد في أعماقها غير مشاعر النشوة والسعادة تزحف إليها من كل صوب وحدب.. فها هو زوجها المطيع يسافر إلى بلد عربي.. سيغرف من (الدولارات) ويضع بين يديها.. لن تقل عن أختها في شيء.. ستشتري الذهب.. ستشتري بكل (الدولارات) ذهباً.. لديها القدرة على إقناع عبد الغني بأن حفظ الأموال في الذهب أفضل ألف مرة من شراء أي شيء آخر.. ستجعل من عفاف طفلتها أجمل من بنت الملكة.. ستشتري لها أجمل ملابس الأطفال الفخمة.. لن تهتم بالثمن.. وسألت نفسها، بينما كان عبد الغني يستعد للسفر بوجهه المتجهم العابس ـ بأي أنواع الحلي تبدأ.. هل بأساور اليد أو بعقد الرقبة.. غير أن كل تلك الأحاسيس والمشاعر المنتشية المتفائلة تخلت عنها وهجرتها بعد سفر زوجها بأيام قليلة.. ضرب كل ساعات يومها بليلها موجات عارمة متناوبة من مشاعر الوحدة والإكتئاب.. والخوف.. لم تدر فيما هو

السبب الذي جعلها تجفل وترتعد عندما دهمتها فكرة سيئة عن زوجها «ماذا لو أصاب عبد الغني أي مكروه في سفره هذا، ومات مثل أبيه في اليمن».. سيطر عليها إحساس بأنها ستكون هي القاتلة، لأنها هي التي دفعته إلى حتفه رغم أنفه ورغم أنف أمه.. وكيف يمكنها أن تواجه أمه، أو تنظر في عينيها لو حصل ذلك لا قدر الله» وانبرت في دعاء محموم بأن يحفظه الله في هذا السفر، حتى لا تتحمل ذنب موته طوال حياتها.. واكتشفت أيضاً بأنها وإن لم يكن حب عبد الغني قد تربع تماماً في أعماق قلبها، إلا أنه خلف لها ما هو أقوى من الحب.. العادة.. لقد اعتادت على وجوده معها.. على موعد ذهابه إلى العمل فوق دراجته.. واستيقاظها المبكر تعد له طعام الإفطار والشاي.. حتى لا يضطر إلى الإفطار عند أمه في البلد.. واعتادت على موعد عودته من المدرسة، وعلى جرس الدراجة المميز يزف لها نبأ رجوعه.. فتستعد بوضع طعام الغداء على الطبلية.. تدليله الحلو لعفاف، وتأليف وتلحين الأغاني المناسبة لها ولإسمها.. اعتادت على النوم ملاصقة له في السرير.. في فترة ما بعد الغداء.. وطوال الليل.. هالها وأصابها بحمى الأرق ذلك المكان المتسع الذي تنام فيه وحدها، صارت تشعر بأنها

هائمة تائهة وسط الصحراء الباردة.. اعتادت على الكلام الهامس معه ربما، لساعات قبل الإستغراق في النوم، بينما يكون كل منهما مستلقياً على ظهره أو على جنبه فوق السرير.. يتكلمان في أشياء عادية.. عن أمه، عن أهلها.. عما يحدث في المدرسة.. عما وقع من الجيران.. عن الآمال.. ثم تبدأ يده الخشنة تتسلل متلصصة إلى نهديها كبداية لمهرجانات الغزل الساخن وممارسة الحب.. والغوص اللذيذ في أعماق اللذة.. ويوماً بعد يوم كان يتمكن منها إحساس قوي بافتقاده، وبالشوق الحقيقي إليه.. حاولت أن تبلل خواطرها ومشاعرها الملتهبة بنيران البعد، المستعرة بتذكر وعده الصادق لها بأنه سيرسل إليها هي وعفاف للحاق به بمجرد استلامه العمل واستقراره في مكان عمله، وراحت تعد الأيام كي يصلها منه خطاب يطلب منها ومن أخيها ممدوح البدء في إجراءات السفر إليه.. وطمأنت نفسها بأنه سيرسل إليها ربما قبل نفاد كمية الخزين من المواد الغذائية التي اشتراها عبد الغني، وخزنها في البيت قبل سفره، حتى لا تحتاج إلى الشراء، والخروج كثيراً، وهي التي لم تتمرس على ذلك.. وخوفاً من أن يستبد بها القلق، والإكتئاب قررت أن تنفتح على الحياة.. لا يجب أن تغلق

على نفسها الباب وتظل هكذا خلف الجدران تجتر ذكرياتها، وتمضغ بملل توقعاتها، وتكهناتها بموعد وصول أول خطاب من عبد الغني.. فكرت في الخروج لزيارة جيرانها في الشقة المقابلة، لعلها تبدد هذه الوحدة التي أفعمتها بالهواجس المتضاربة المتناقضة، والعواصف الباردة الموحشة.. وهتفت متذكرة أم عبد الغني.. يا لها من امرأة قوية صلبة، كيف عاشت عمرها كله وحيدة من غير رجل؟.. ربما عانت ذلك في أول أيامها، ثم اعتادت على ذلك.. على أي حال الفارق كبير بيني وبينها.. لأنني أنتظر على أمل أن يجتمع الشمل مرة ثانية.. وحملت ابنتها عفاف على كتفها، وذهبت لتبديد الكآبة عند الجيران.. لكنها عادت بعدها من عندهم مرتعبة ترتجف مختنقة بالبكاء.. فقد استغل إبن الجيران المراهق والذي كان ينظر إليها من قبل سفر عبد الغني بخجل وحياء شديدين.. ويقدرها ويحترمها، ولم يرفع عينه في وجهها أبداً.. استغل دخول أمه إلى المطبخ لعمل الشاي تحية لها؛ لأنها ضيفة عزيزة تزورهم لأول مرة.. وخلا المكان إلا منهما وكانت تتكلم معه بصورة عادية، كأنه أخوها الصغير تسأله عن أحواله الدراسية.. وعن أمله عندما يكبر.. وعن الكلية التي

ينوي التقدم لها، بعد حصوله على الثانوية العامة بعد عام
واحد.. تقدم منها في شيء من التوتر مداعباً عفاف التي
تجلس في حجر أمها موهماً جميلة بأنه ينوي تقبيل عفاف..
ولكنها روعت عندما غافلها وقبلها هي في خدها.. جفلت
للحظات غير مستوعبة ما وقع، ولكنها على الفور وبرد فعل
طبيعي هوت على صدغه بيدها.. جعلته يشعر بعظم ذنبه؛
فانكمش أمامها متوسلاً في أسف وارتباك بألا تخبر أمه.. لم
تجبه.. ولم تنتظر الشاي.. بل حملت طفلتها على كتفها،
وقفلت راجعة إلى قلعتها تحتمي بداخلها هي وابنتها من
الذئاب الآدمية التي تتربص لها في كل مكان.. وأسلمت
نفسها إلى بكاء مر، وراح ينمو لديها شعور متعاظم من
تأنيب الضمير، وأخذت تتحكم فيها عقدة الإحساس
بالذنب.. فهي التي فعلت بنفسها كل هذا.. هي التي
ضغطت على زوجها لكي يتركها ويسافر.. هي التي
رفضت أن يقيم أحد معها في الشقة في غيابه.. هي التي
أخذتها العزة بالإثم، ورفضت أن تنتقل للإقامة مع حماتها
في القرية. هي التي أعطت الفرصة للإبن الجيران المراهق أن
يتجاسر عليها، ويختلس منها القبلة.. وراحت تحك بعصبية
خدها مكان شفتيه.. كما لو أنه قد لوّث خدّها.. وأرخت

لدموعها من جديد كل حبالها لتتدفق إحساساً بالعار والذل والمهانة التي طعنها بها إبن الجيران.. وإحساساً بذنبها الكبير في تشجيع زوجها على السفر، وتركها وحيدة.. ولم يعد لها من مخرج من وسط هذا البئر العميق الذي هوت إليه بإرادتها إلا خطاب عبد الغني الذي سيأمرها بسرعة الحضور إليه.. واستمرت تعتقل نفسها بإرادتها داخل شقتها.. لا تخرج منها إلا لأيام طويلة.. حتى سمعت صوت ساعي البريد ينادي بإسمها ويطرق الباب.. لم تدر كيف أسرعت إلى الباب.. وكيف قابلته.. وهل كانت تغطي شعرها أم نسيت ذلك في غمرة فرحتها.. كل ما أدركته بسعادة مكتسحة لكل أحزانها السابقة، وكل برودة الليالي الأربعين التي مرت عليها منذ أن غادر زوجها داره وهجر بيته بتحريض منها.. هو هذا الخطاب الرائع المطرز الحواف باللون الأحمر.. إنه من عبد الغني.. بريد جوي.. أغلقت الباب في وجه ساعي البريد دون أن تنتبه إلى أنه لم يزل واقفاً منتظراً للحلاوة.. فهو قد خمن أن في هذا الخطاب القادم من الخارج شيكاً.. ولا شك أنه سيتقاضى البشارة من المرأة.. ولكنه استدار هابطاً حانقاً على هذه المرأة قليلة الذوق التي لا تقدر تعب الناس.. أما هي فقد نسيت تماماً

كيف وصل هذا الخطاب إلى أناملها المرتجفة بالعواطف والمشاعر العاصفة.. ففي هذا الخطاب كل الحلول لمشاكلها داخله العلاج الوحيد لكل حالات التوجس والخوف والإكتئاب.. والإحساس بالذنب الذي يخنقها تماماً ويكتم بعنف أنفاسها.. لدرجة أن شهيتها للطعام قد فقدتها تماماً..ولولا أن تناولها الطعام كان ضرورياً حتى توفر اللبن لديها لإرضاع عفاف.. لربما كانت قد إمتنعت عن الزاد نهائياً.. وبأصابعها المرتعشة أخذت تفض الرسالة بقلب واجف مضطرب، كما لو أنها قد عادت من جديد مراهقة متأججة بالحب، وستقرأ رسالة عاطفية حارة من حبيبها.. وهتفت بصراحة وجرأة في وجه هذا الخاطر كأنها تتحداه بلا خجل «نعم من أحب الناس إلى قلبي».. لم تكن هناك فرصة من الوقت تتذكر فيها زميلات المدرسة المراهقات أو رسائلهن الغرامية الحارة لتعذرهن.. لكنها راحت تجري بعينيها فوق سطور الرسالة متجاوزة لكلمات الشوق والضنى المعتادة؛ كي تصل إلى آخر الرسالة والسلام والتحية وعنوانه الجديد في المدرسة التي تسلم فيها العمل منذ شهر تقريباً.. لكنه لم يشر بكلمة واحدة إلى وعده السابق.. لم ينطق بحرف واحد ليخبرها أنه ينتظر حضورهما إليه فور

قراءة هذا الخطاب.. لم تصدق نفسها، أوهمت نفسها أنها قد قرأت الرسالة متعجلة، ولا بد أن هناك بعض السطور سقطت منها دون قراءة.. أعادت القراءة للمرة الثالثة ولكنها لم تعثر على مؤشّر ولو ضئيلاً يوحي لها مجرد إيحاء بأنه مازال يتذكر وعده قبل سفره، بأنه لن يتحمل البعد عنهما.. بل إنه يتنكر لذلك بشكل غير مباشر، حيث راح يسهب في وصف المكان الذي يعمل فيه، وكيف أنه موحش ويصعب الحياة فيه على أي آدمي.. فهو بعيد جداً عن العمران.. لا أطباء ولا مستشفيات.. ولا أسواق.. الجبال تخنقها وتضغط على أنفاسها من جميع الجهات الأصلية والفرعية.. كما أن الرؤوس الجبلية تطل عليها باحتقار من عل، توشك أن تبصق عليها من حجارتها وصخورها.. لدرجة أنه مع زملائه في بيت العزاب يودعون بعضهم قبل النوم.. ويستقبلون بعضهم بحرارة في الصباح.. غير مصدقين أنهم أصبحوا أحياء.. وأن حجارة الجبال من حولهم لم تنهمر عليهم منزلقة بفعل ندى الليل.. ورغم ما في هذا المكان من صعوبات قاتلة، وقسوة في كل شيء.. إلاّ أنه يستعذب ذلك كله، لأنه يحقق أمنية غالية على نفس زوجته الحبيبة.. وكذلك ليتمكن من صنع مستقبل مادي لأولادنا.. وكما

يقول زميله الذي يعمل معهم بالمدرسة وإسمه مدحت وقد حصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة.. ولكنه فضّل أن يأتي إلى اليمن ليعمل بمؤهله المتوسط دبلوم المعلمين كمعلم للمرحلة الإبتدائية بدلاً من تسلم عمله كمعلم لمادة الفلسفة في مصر «لأنه يكرر قولته المشهورة والتي أقنعتني تماماً، وكشفت الكثير من الحجب عن عيني المغمضتين «لاخير في لذة يعقبها ألم.. والخير كل الخير في ألم يعقبه لذة» .. ولذلك يا حبيبتي يجب أن نتحمل نحن لفترة محدودة، من أجل أن نعيش في سعادة ورفاهية مدى الحياة.. ويجب أن نتوكأ في أيامنا المقبلة على الأمل والصبر، حتى نصل إلى بر السعادة والأمان المادي.. وصدقيني كم كنت أنانياً ضيق النظرة عندما كنت أرفض فكرتك وإصرارك على سفري إلى الخارج.. ولكي أفرحك وأطمئنك إلى مستقبلنا، أفضي إليك بسر خاص جداً لا تخبري به أي مخلوق حتى ولو كانت أمي أو أمك.. هو أن المعلم هنا يمكنه أن يوفر مع نهاية العام حوالي خمسة آلاف (دولار) - صل على النبي - ما يحسد المال إلا صاحبه.. طبعاً لا يمكن ترجمة هذا المبلغ إلى الجنيه المصري.. لأن السعر متغير.. وهو في الحمد لله في ارتفاع دائم.. أرجو يا زوجتي الحبيبة أن تحتفظي بهذا

السر.. حتى لا تصيبنا العيون الحاسدة..» .. قرأت جميلة الرسالة للمرة العشرين ولم تعد قادرة على تحديد نوع العواطف التي تجتاحها وتمزقها.. أهي خيبة الأمل المفاجئة التي أصابتها بالإحباط والإكتئاب حتى أنها عادت تجتر ذكرياتها المرة في بيت أبيها وكيف أن القدر يتحداها هي على وجه التحديد بشكل متواصل، رغم أنها لم ترتكب أي خطأ في حياتها.. بينما زميلاتها والتي كانت تعرف عنهن الإنحلال الخلقي، وعدم الإلتزام والأدب يعشن سعيدات مرتاحات مع أزواجهن بحرية كاملة، وفي ثراء وفخامة.. وكأن ماضيهن المخجل هو الذي كافأهن على ذلك.. وتساءلت في لحظة شك ويأس قاتل عمن الذي يحكم العالم أهو الله أم الشيطان.. ولكنها سرعان ما استفاقت من شكها ومحاولة التخلص من إحباطها ويأسها المدمر مستغفرة الله على ذنبها.. مؤنبة لنفسها بمرارة «ما هذا؟!! .. هل وصل بك الحال إلى الكفر، وأن تتركي نفسك لعبة في يد الشيطان؟!!.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..» وشعرت بأنها أسلمت نفسها إلى الشيطان الذي يستغل في الإنسان تلك اللحظات من الإحباط واليأس والقنوط كي يوسوس له.. قررت أن تقاومه ولا تستمع إليه وإلا أصابها بالجنون

والكفر وفقدت كل شيء.. نهضت بسرعة ودون تلكؤ إلى
الحمام فتوضأت بعد أن وضعت الرسالة في مظروفها ثم
حفظتها في درج التسريحة في حجرة النوم.. ووقفت بين
يدي الله مصلية صلاة الظهر مستغفرة متوسلة ليصفح عنها
زلتها.. متضرعة له بأن يلهمها الصبر، ويمدها بقوة حتى
يمكنها التأقلم مع هذه الحياة الجديدة.. وأن يكون معها في
كل وقت ولا يتخلى عنها أبداً.. وقررت أن تقرأ كل يوم
سورة من سور القرآن الكريم.. حتى تكون قريبة من الله
دائماً وتنجو من وسوسة الشيطان.. يوماً بعد يوم أخذت
تعيد قراءة رسائل عبد الغني التي توالت عليها ممنية لنفسها
بالسعادة والراحة التي ستحصل عليها مع أشهر الصيف
المقبلة.. وعندما يهل عليها عبد الغني في العطلة.. وفي كل
رسالة يكتب إليها كان يزكّي وهج الآمال في خيالها..
مصارحاً لها بأنه سيعطيها كل (الدولارات) عندما يأتي؛
كي تتصرف فيها بمعرفتها هي وكما يحلو لها.. ومن جديد
بدأ يرتد إليها الشعور بالرضا.. وزايلها تماماً إحساسها بخيبة
الأمل، بعد أن وطدت نفسها على قضاء هذه الأشهر الباقية
على عودة عبد الغني بمفردها مع إبنتها.. وفي العطلة سيقوم
بعمل جواز سفر لها وسيصطحبها معه إلى اليمن، لأنه

طلب نقله إلى مكان مناسب للحياة ولقد أخذ وعداً قاطعاً ونهائياً من مدير المنطقة الذي كان يزور مدرسته بتحقيق رغبته.. وكانت تخاطب عفافاً بسعادة وهي تدللها «نستحمل غياب بابا عنا كام شهر وبعدين نعيش معه على طول.. بابا بيحبنا يا عفاف وما يقدرش يعيش من غيرنا» ثم تنهال بالقبلات الحارة على وجه عفاف وتحتضنها بعنف مدغدغة إياها لتضحك وتشاركها معها في الأمل واقترابه..

بعد ثلاث سنوات من سفر زوجها عبد الغني إلى اليمن، تكون لدى جميلة قناعة رسخت في أعماق فكرها، ومشاعرها بأن زواجها من عبد الغني كان أكبر مأساة في حياتها المليئة بالمآسي والكبت والحرمان منذ أن كانت مراهقة في بيت أهلها.. ولم تكن قناعتها تلك قد انبثقت داخل رأسها فجأة، وبدافع من انفعال واحد.. بل كان ثمرة تجارب ووقائع تراكمت مع تراكم أوراق الأشجار المتساقطة بين الأيام والليالي، على مدى فصولها الأربعة ومنذ أن سافر عبد الغني إلى اليمن.. وكانت منه الطعنة الأولى عندما تخلى عن وعده لها بأنها ستلحقه.. ورغم أنها حاولت خداع نفسها والتمسح بجدران الصبر والأمل.. إلا أنه سبب لها كدمة نفسية جديدة عندما جاء في العطلة

الصيفية الأولى.. فعلى حين أنه أوهمها في أول العطلة بأن كل (الدولارات) التي أحضرها هي طوع أمرها وسلمها إليها في يدها لتفرح بها وهو يسألها ممتناً عليها ومؤكداً على أنه دائماً يحقق لها المستحيل «هل حلمت في يوم من الأيام أن تمسكي بيديك مبلغ خمسة آلاف (دولار).. مرة واحدة« ولم تفعل أكثر من ذلك.. لأنه وضّح لها عندما طلبت منه أن يحقق وعده ويشتري الذهب الذي وعدها به.. لم يرفض صراحة.. ولكن وضّح كصاحب خبرة (الدولار الآن سعره منخفض لأنه كثير في السوق السوداء.. لكن لو انتظرنا إلى آخر العطلة فإنه من المؤكد أن سعره سيرتفع.. سيحقق ربحاً يفوق الألف جنيه.. يمكنك أن تأخذي الألف جنيه وتشتري بها ذهباً».. وذكرها من جديد باللذة والألم.. ومن الأفضل الإنتظار حتى لا نخسر.. وانتظرت في ثقة.. ولكنه قبل آخر العطلة كان قد التقى بشاب يتعرف عليه لأول مرة، يدعى كيلاني الغتت.. وأضاف موضحاً لجميلة «إنه شاب يعمل في تجارة الأقمشة.. يسكن في نهاية شارعنا.. ولكن متجره موجود في وسط المدينة.. عرض علي أن أشغل أموالي معه في تجارة الأقمشة.. أكد لي أن مبلغي سيحقق ربحاً خلال العام لا يقل عن خمسين

في المائة.. بينما لو أودعناه في البنك لن يحقق إلا تسعة في المائة فقط.. لم أشأ أن أضيع الفرصة.. اتفقت معه على كل شيء.. سيأخذ الخمسة آلاف (دولار) كلها وبسعر أغلى عن سعر السوق بخمسة قروش زيادة في (الدولار).. و.... وواصل حديثه الحماسي عن كيلاني، بينما جميلة لم تعد تسمع له.. تجمد تفكيرها داخل بئر أحزانها وخذلانها وفجيعتها، للمرة الثانية خلال هذه العطلة.. وذلك بعد أن صدمها في أيامه الأولى بأنه لن يتمكن من اصطحابهما معه العام القادم أيضاً ذلك لأن المدير الذي سبق ووعده بالنقل لم يبر بوعده، وتنكر له.. وطلب منها أن تتحمل العام هذا أيضاً.. وفرحها كطفلة باعطائها (الدولارات) لتحفظها معها.. ثم عاد ليسحبها منها الآن كي يشترك في تجارة الأقمشة مع كيلاني، ليحقق ربحاً سنوياً لا يقل عن خمسين في المائة.. مؤكداً عليها أن تجهز عشاء فاخراً الليلة؛ لأن كيلاني وزوجته سيأتيان الليلة لزيارتهم والتعرف إليهم.. وأخبرها بأنه سيترك لها توكيلاً حتى توالي المصلحة في غيابه.. وبالنسبة للذهب من الأفضل أن نؤجل شراءه الآن.. ويمكننا بعد ذلك شراؤه من أرباح الخمسة آلاف (دولار).. ووعدها بأنه سيشتري لها بألفي جنيه ذهب في

العطلة القادمة.. أشاحت بوجهها مبتعدة عنه غير معولة على ما يقول.. وسيطر عليها إحساس بالإمتعاض والمقت لهذا الرجل الكاذب.. فلم تعد تثق بوعوده.. وصارت نفسها مفعمة بالغيظ والضيق والنفور تجاه عبد الغني.. لم تعد تطيق رائحته.. كانت تنام مبتعدة عنه في السرير نفسه.. أو تتعلل بقلق أو مرض عفاف لتنام بجوارها على السرير الآخر .. لم تعد تستشعر الراحة والأمان في وجوده.. كل شيء فيه تحول إلى إيحاءات مقززة.. عندما انتابها هذا الشعور بعد زواجها منه بثلاثة أشهر.. وصارحت أمها بذلك، وأنها لا تستطيع مواصلة الحياة معه، لأنها تنفر نه وبدون سبب واضح.. طمأنتها أمها بأن هذه مشاعر طبيعية جداً تسيطر على كل زوجة حامل تجاه زوجها، ومن حولها في أشهر الوحم والحمل الأولى.. لكن الآن.. لا حمل.. لا وحم.. ومع ذلك فإن تلك العواطف العاصفة من الكراهية والتمزق وبعثرة أشلاء أحلامها وآمالها السابقة.. لا تعدو أن تكون شيئاً تافهاً بالنسبة لهذا الإحتقار الأبدي الذي حفره بنفسه في أعماق قلبها تجاهه هو، عندما فاجأها ـ في حضور كيلاني وزوجته ـ على العشاء عندهم لأول مرة بأنه اتفق مع كيلاني على أن يرسل لها مع زوجته كل أول شهر مبلغ

مائة جنيه مصاريفها الشهرية هي وعفاف.. وأنه لو حدث أي طارىء لا قدر الله ـ واحتاجت إلى مبالغ مالية أخرى، يمكنها الاتصال بزوجة كيلاني للحصول على المبلغ.. وأوضح لها في سعادة سخيفة «لأن هذه المبالغ ستخصم من الأرباح».. لقد اتفق مع كيلاني على كل شيء.. وأومأ كيلاني إليها بالموافقة في أدب وشيء من الحياء في وجود زوجته.. ولم تكن في حالة من الإتزان أو الراحة النفسية الطيبة لكي تتفحص كيلاني أو زوجته، أو حتى ترحب بهما الترحيب الكافي.. بل نظرت إليهما في ذلك الوقت على أنهما نصابان سحرا لزوجها الذي أصيب بداء الطمع والجشع فجأة، بعد أن عرفت (الدولارات) طريقها إلى جيبه وقلبه.. وكان من قبل ذلك الرجل كريماً سخياً .. كان يقترض ليشتري لها ما تطلبه.. كان يشعر بسعادة تملأ عينيه وهو يفعل ذلك.. كان يكرر بأن أغلى شيء في الدنيا يرخص لك.. لكن منذ أن صار مالكاً للمال، تحول إلى أستاذ في فن البخل والضن بالمال حتى على أقرب الناس إليه.. حتى أنه لم يفكر في شراء هدية إلى أمه.. ويخادع زوجته بين الوقت والآخر حتى لا يحقق رغبتها التي ما دفعته إلى السفر إلا لكي تنافس به أختها التي سبقتها إلى

الكويت.. الآن يتهرب من شراء الذهب.. ولم يكتف بذلك بل يحضر لها رقيباً مالياً على تصرفاتها ومصاريفها.. ولم يأبه بالحاحها عليه باصطحابها معه.. ستعيش معه في ذلك المكان الموحش الذي يعمل فيه.. لن تشكو له صعوبة المعيشة.. ستعيش مثل أولئك البشر الذين يعيشون هناك.. ستعالج مثلهم بالسحر والوصفات البلدية.. ولكنه كرر لها هذا القول السخيف الذي تعلمه خصيصاً لحرمانها من كل شيء.. تحمل الألم من أجل السعادة المقبلة.. حتى أنها تركت نفسها على سجيتها ذات مرة.. قبل سفره بيومين.. وأخرجت كل ما كان مكبوتاً في أعماقها من مرارة، ونعتته صراحة بأنه صار بخيلاً.. وأنه لم يعد كما كان، وأن البعد عنهم ملأ قلبه بالقسوة تجاههم.. وأن الفلوس غيرت نفسه تماماً.. و.. و.. .. لكنه كان يضحك بارتياح وثقة في وجهها ولم يغضب ولكأنها تمدحه لا تذمه.. وقال في هدوء قاتل «ستعلمين بعد حين أنك كنت مخطئة تماماً في كل هذا الكلام.. وأن الخير كل الخير في ألم يعقبه لذة» وبعد ذلك الحوار معه تأكدت تماماً أنها قد أفلتت الأمر من بين يديها وهي التي أتعست حالها بنفسها عندما أصرت على سفره إلى اليمن وتمنت لو ترجع الأيام الأولى.. فطلبت

منه فجأة وكأنها عثرت على الحل لجميع مشاكلها وعلاج جروحها «إذن.. لا تسافر وابق معنا، حتى تتاح لك فرصة مناسبة، تسافر فيها إلى بلد عربي آخر تستطيع فيه اصطحابنا معك..» وجفلت عندما أطلق ضحكة مجلجلة لسذاجتها، ومعقباً على كلامها باللوم والتأنيب «ماذا جرى لك يا جميلة؟!!.. أين جميلة الذكية المتحمسة للغنى والسفر إلى الخارج؟!!.. أنت تعلمين أن الفرصة لا تأتي للإنسان غير مرة واحدة في العمر.. أتودين أن أضيعها؟!!».. وسافر معطياً ظهره لها.. غير عابىء بأي دموع أو توسلات منها.

وكان طبيعياً أن تنعكس كراهيتها لعبد الغني على علاقتها مع أمه.. صارت تتعامل معها بجفاء كلما أتت لزيارتها والإطمئنان إلى حفيدتها في غياب إبنها.. وكان طبيعياً أيضاً أن تقل زيارة أم عبد الغني إليها.. ولم يعد لجميلة من أصدقاء غير زوجة كيلاني التي راحت تبادلها الزيارة، وخاصة أنهما يسكنان في شارع واحد.. كانت تذهب إلى زيارتها في أي وقت، دون سابق موعد.. واتخذت زوجة كيلاني منها صديقة مخلصة.. وندمت جميلة لأنها ظنت بها ظن السوء عندما رأتها لأول مرة.. وأيقنت بأن العيب ليس فيها هي وزوجها كيلاني الغتت..

لكن العيب الحقيقي يتمثل في زوجها، هذا الأناني الطمّاع.. حتى إذا لم يلتق بكيلاني.. كان سيلتقي مع غيره.. وبذا فتح قلبها على مصراعيه.. أخذت تفضفض لها عن مكنونات قلبها وتشاركها أفراحها وآلامها.. وصارا يستمتعان بجلسات النميمة المسلية عن الجيران.. وفي أيام كثيرة كان يعود كيلاني من متجره لتناول الغداء في بيته ليجد جميلة في بيته مع زوجته فيرحب بها غاضاً بصره في أدب.. وكانت هي تنهض خجلة معتذرة عن طول الزيارة.. وفي أول الأمر كانت ترفض تناول الغداء معهما بشكل قاطع.. إلا أنه مع توالي الأيام والزيارات أقسمت زوجة كيلاني بأغلظ الإيمان وبأنها لن تتعرف إليها مرة ثانية لو لم تتناول طعام الغداء معهما.. مؤكدة أن كيلاني مثل أخيها، ولماذا تحرج منه.. ورد كيلاني مؤكداً على صحة إدعاء زوجته وبأنهم أصبحوا شركاء في التجارة، وأسرة واحدة.. وراح يدلل عفافا الصغيرة بإخلاص وبحب وحنان زائدين حتى تعد زوجته الغداء.. وكانت المرة الأولى التي تطالعه فيه جميلة بإمعان.. وهتفت في أعماقها وبعد أن وقعت عيناها على تلك الشعرات السوداء التي تطل من صدره متجاوزة فتحة قميصه «إنه الشاب نفسه الذي كنت أحلم

به زوجاً لي.. وسامة الوجه.. الجسد الرياضي الرشيق.. حتى شعر الصدر.. ثقته بنفسه.. يترك زوجته حرة فيما تفعل.. لم يفرض عليها حتى الآن الحجاب.. رقيق.. يدلل عفافا بحنان أبوي حقيقي.. مسكين محروم من الأطفال و..» وجفلت عينا جميلة، وضربها التوتر المفاجيء عندما وقع نظر كيلاني عليها، فتبين أنها تمعن النظر في ملامحه بإعجاب غير خافٍ .. نكست نظرها في الأرض وقالت موارية ارتباكها، مخاطبة عفاف التي كانت تضحك بين يدي كيلاني القويتين: تعالي يا عفاف.. كفاك.. أتعبت عمك كيلاني. لكن كيلاني سارع بصوته الهادىء الناعم الرقيق يعارضها في ذلك مؤكداً بصدق «أي تعب؟!! إنني أتمنى أن ألعب معها طوال عمري.. إن لعبي معها يمنحني سعادة لا أشعر بها مع أي إنسان آخر.. إنها لطيفة جداً وجميلة جداً».. ووارت جميلة عينيها الجميلتين بعيداً عنه في حياء، وقد نبهها حسها الأنثوي أن هذا الغزل هي المقصودة به، وليس عفافا.. فاعتذرت ناهضة من أمامه، وبأنها ستلحق بصديقتها في المطبخ لتساعدها في إعداد طعام الغداء.. وتركته وحيداً مع عفاف.. ولحقت بزوجته في المطبخ بجسدها فقط.. أما عقلها فقد حلّق بعيداً «ماذا

يقصد كيلاني بذلك؟ .. ليس في الأمر على أي حال حسن النية.. لقد لمحت في عينيه العميقتين شعوراً بالإعجاب.. ومن خلال ابتسامته المتراقصة فوق شفتيه الرقيقتين كان يؤكد لي بأنه يقصد ويعني كل ما يقول».. وتظاهرت بمساعدتها.. وتظاهرت أيضاً بتناول الطعام معهما، وأطعمت عفافا.. وكانت شاردة تماماً.. لم تعد تشاركهما الحديث.. لدرجة أن زوجة كيلاني علقت على ذلك الشرود قائلة بمزاح «يا بخت الأستاذ عبد الغني.. سالب عقلك حتى وهو في اليمن على بعد آلاف الكيلومترات».. فانتزعت جميلة ابتسامة مجاملة لمزاح صديقتها.. واكتفت بالصمت.. ولكنها كانت قد اتخذت قراراً نهائياً في عقلها، بأنها ستقطع رجلها تماماً ونهائياً عن زيارة صديقتها هذه مرة ثانية في بيتها..وإن شاءت فلتأت هي لزيارتها في شقتها.. وأضافت مبررة ذلك لنفسها في تأديب «أنا زوجة.. وهو زوج صديقتي.. والمفروض أن نبعد النار عن البنزين».. وبالفعل نفذت جميلة ما قررته.. ظلت أكثر من أسبوعين لا تذهب إلى زوجة كيلاني في شقتها، ما اضطر زوجة كيلاني إلى زيارتها في بيتها مبدية دهشتها لتصرفها الجديد هذا.. لقد كانت من قبل تزورها يوميا حتى

أنها اعتادت عليها إلى حد الإدمان.. ورجتها أن تأتي لزيارتها ووعدتها بأنها لن تطلب منها تناول الغداء معهم مرة ثانية بعد أن ثبت لها أنها بخيلة.. ولكن جميلة ظلت محتفظة بالسبب الحقيقي للامتناع عن الزيارة سرا في نفسها، لا تطلع عليه أي مخلوق.. إلى أن توقفت الزيارات اليومية المعتادة لزوجة كيلاني لأكثر من أربعة أيام.. شعرت فيهما جميلة بالضيق والكآبة.. وأخيرا قررت أن تتخلى عن قرارها السابق أو على الأقل تعدل فيه، واتخذت قرارا جديدا بأنها لن تزورها إلا في الأوقات التي لا يتوقع فيها وجود زوجها في البيت.. فترة الصباح.. أو فترة العصر أو المغرب.. تلك أوقات الذروة بالنسبة للبيع في المحلات التجارية.. وعندما ذهبت إليها أحست بالألم والندم عندما علمت أنها كانت مريضة طوال الأيام الماضية.. وانهالت عليها كلمات العتاب الحقيقية«كيف تكون هي أخلص صديقاتها ثم لا تفكر في زيارتها رغم أنها في الشارع نفسه!!» ولم تجد جميلة من وسيلة تبرر بها عدم مجيئها غير تعللها بمرض عفاف.. التي لم تكن مريضة أصلا.. واستأنفت الزيارات لها مرة ثانية، كل يوم ولكن بدأت تختار الأوقات التي خمنت أن كيلاني لا يوجد بها في

المنزل تحاشيا لتلاقي عيونهما.. إلا أن الذي أزعجها كثيرا في تلك الأثناء ـ هي تلك الأحلام التي بدأت تتكرر معها بين ليلة وأخرى، وبطلها الوحيد هو كيلاني.. مرة تكون معه في حالة حب.. مرة يصطحبها هي وعفاف لينزههما على الشاطىء، ويصمم على أن تلبس (المايو)حتى يرى كل الناس هذا الجمال المخبوء.. ومرة تراه يتشاجر مع عبد الغنى طالبا منه الطلاق لجميلة لأنه لا يستأهلها.. ويتركان أمر الاختيار لها.. وتختار بإصرار- وتحد لعبد الغنى ـ كيلاني.. ومرة تحلم أنها فتاة لم تتزوج بعد وجاء عبد الغنى ليتزوجها لكنها رفضته.. وعندما جاء كيلاني يطلب يدها وافقت في الحال وتزف إليه.. ويصطحبها إلى الاسكندريه ليعيش معها هناك بجوار البحر.. وفي كل مرة تهبّ من نومها مفزوعة.. ولكن تظل ساعات وساعات تفكر في هذا الحلم وهي تستشعر سعادة سرية جدا لا يمكن أن تطلع عليها أحداً لأنها سعادة من النوع الشاذ بينما أحست بأن قلبها قد جفت فيه كل المشاعر الطيبة ناحية زوجها الأناني البخيل.. الذي لم يعد يملك غير تلك الكلمات الباردة الميتة التي يرصها رصاً في خطاباته التي عادت قليلة، وكأنه يريد أن يوفر ثمن طابع البريد.. وهي أيضاً لم تعد متلهفة لأي

خطاب من خطاباته.. فها هو العام الثالث له ولم يفكر في شراء أية قطعة ذهبية رغم الوعود.. ولم يعد لديها رغبة في أية هدية منه.. بل فكرت أن تتحرر من تبعيتها المادية لهذا الرجل الأناني البخيل.. ولذا فجرت في وجهه رغبتها في خروجها إلى العمل.. بحجة التخلص من هذا الفراغ الذي يرهق أعصابها.. ولكنه رفض بشدة قائلاً بأنه لو كان يود الزواج من موظفة لتزوجها من أول الأمر مدرسة.. كانت على الأقل خرجت معه إلى اليمن وتعاقدت مثل معظم زملائه الذين يحصلون على ضعف دخله هو.. والسنة هناك لهم بسنتين له.. واجتاحتها رغبة عارمة للبصق في وجهه وهو يقول بذلك أمام كيلاني الغتت وزوجته اللذين طلبت منهما التدخل في الموضوع لإقناع زوجها بالسماح لها بالعمل.. وأحست بأنه يهينها أمامهما «يمن عليّ بأنه تزوجني جاهلة عاطلة.. والمفروض أن يحمد الله لأني رضيت برجل بخيل مثله لا يوجد في شكله أي مسحة من الجمال.. أنا جميلة.. هناك من يتمنى مني نظرة واحدة وأهرب منه احتراماً لهذا الرجل الذي لا يستحق أي احترام.. يريد أن يقلل من قيمتي أمامهما ويحقر من شأني.. يريد أن يرتفع هو في نظرهم ويظهر بمظهر سيىء الحظ لأنه

لم يتزوج معلمة كانت ستدخل له في العام الواحد خمسة آلاف دولار مثله تماماً.. أما أنا فأصبحت أمثل له عبئاً ثقيلاً.. لأنني لا أعمل» ولم يكتف بهذا بل يضيف في شبه سخرية.. وأي عمل يمكن أن يكون لحاملة إعدادية؟!!..
فكرت للحظات في الإنتقام منه لتلك الإهانات المتعمدة بالبصق في وجهه أمام الحاضرين، وليكن ما يكون حتى ولو كان فيه الطلاق.. إنها لم تعد تحتمل العيش معه ولو لدقيقة واحدة.. ولكنها لم تستطع التجاسر على فعل ذلك فابتلعت إهانتها، وتفجرت دموعها غزيرة.. كأنها أرادت أن تغسل بها كل مآسي حياتها الماضية.. وخاصة مأساة الزواج من مثل هذا الرجل.. وومضت في ذهنها فكرة.. سترفض هذا التعبير الضعيف عن سخطها وانتقامها.. لا بد أن تعيد من جديد حساباتها.. لا بد أن تبدأ حياة جديدة تصنعها هي..
لن تترك أحداً من جديد يصنع لها حياتها.. ملت من أبيها، ومن زوجها المهشم هذا، والذي يمنّ عليها بالزواج منها مع أنها جاهلة وعاطلة تمثل عبئاً عليه.. رفعت عينيها من بين دموعها إلى كيلاني الجالس في مواجهتها فلمحت في عينيه مشاعر الرثاء لها والتعاطف معها.. ورفضت بإصرار كل تلك المشاعر التي تنم عن الشفقة.. وركّزت بعينيها في

عينيه مخاطبة له بكلام غير منطوق ولكنه فهم في الحال من جانب كيلاني.. وبشكل تلقائي هزّ رأسه هزة خفيفة كأنه يقول لها «لا تحملي هماً طالما أنا على قيد الحياة».. ويبدو أن عبد الغني قد تمكن من رصد هذه المكالمة غير المسموعة عندما نقل بصره بسرعة البرق بين عيون زوجته وكيلاني.. لأنه صمم في هذه المرة أن تتوقف عن التكامل مع كيلاني متحججاً بأن مال التجارة للتجارة، ولا يجب أن نخلط بينه وبين مصروف البيت.. ولذلك أعطاها مبلغ ثلاثة آلاف (دولار) لتصرف منها في غيابه .. لأنه قرّر أن يبقى هناك سنتين متواصلتين.. لا ليأتي في عطلة الصيف القادمة، حتى يوفر ثمن التذكرة والهدايا.. كي يأتي بعدها ويستقر نهائياً في مصر ولا يعود لليمن مرة أخرى.. لم تنس أنه زوجها البخيل فقالت له بمنطقه «ما رأيك لو شغلنا هذا المبلغ مع كيلاني وأصرف من أرباحه».. توقف للحظات طويلة، لم يرد فيها، أحست به يتمزق بين خوفه من كيلاني وبين حرصه على المال والربح الذي قد يعود عليه من تشغيل هذا المبلغ.. ولم يطاوعه لسانه بالرفض..هز رأسه قائلاً: تصرفي كما يحلو لك المبلغ معك وأنت لك الخيار.

قررت جميلة بصورة واضحة ونهائية أنها لن تعود أبداً

إلى جميلة القديمة.. السلعة المهملة على رف بيت الزوجية..
وأن هذا الطريق الذي بدأته مباشرة بعد أن أعطاها عبد
الغني مبلغ الثلاثة آلاف (دولار) وسافر منذ عام واعداً إياها
بأنه سيواصل العمل في اليمن لمدة عامين ثم يعود نهائياً..
هذا الطريق لن ترجع عنه أبداً.. حتى أنها صرخت بقسوة
في وجه أمها، التي أفضت إليها - في شك - بما سمعته من
الناس بأنها خرجت للتجارة في ملابس مهربة من بور سعيد
وكذلك في تجارة العملة.. «لقد قتلتموني مرة.. ولن أسمح
لأحد منكم أن يقتلني مرة أخرى» وانطلقت هادرة بالرغبة
المحمومة في النجاح والمال.. بين يوم وآخر مسافرة إلى بور
سعيد متنكرة بسبب ظاهر هو تجارة الملابس المستوردة من
الميناء الحرة بينما الحقيقة التي لا يعرفها معظم من حولها أنها
تتعامل مع شخصية هامة في بور سعيد في استبدال العملة
في السوق السوداء.. وهي في كل وقت تشعر بالفضل
والإمتنان لحبيبها كيلاني الغتت الذي أخذ عهداً على نفسه
بعينيه - وفي وجود ما يسمى زوجها - أنه سيقف بجوارها
ويساعدها بروحه.. ولذلك لم تجد مشقة كبيرة في شرح ما
تريد بعد أن سافر عبد الغني بيوم واحد.. ويبدو أنه كان
مستعداً بكل خططه لمستقبلها.. فمن خلال متجره يمكنها

أن تبدأ.. ولكن فليبق الأمر سراً بعيداً عن زوجته.. تحسباً لمشاكل الغيرة.. ولم تمانع في ذلك.. ذهب معها إلى بور سعيد.. تم التعالرف بينها وبين التجار هناك الذين جرى لعابهم عندما رأوها وخاصة بعد أن اتخذت قراراً انتقامياً من أبيها وأخيها الذي هرب هو الآخر إلى الجزائر بعد أن غير المهنة في جواز السفر، وقالوا إنه سيستمر هناك ولن يرجع إلى مصر قبل فترة طويلة لأنه تزوج من معلمة جزائرية.. وحتى لكي تنتقم من عبد الغني.. هذا الذي يتدلل عليها بمقتضى ورقة مكتوبة.. تجعلها تابعة لها مطيعة، حتى ولو حرمها من كل حقوقها كامرأة تتوهج شهوة ورغبة.. فلقد ألقت بالحجاب بعيداً، وعرضت هذا الجمال المخبوء للشمس والهواء الطلق فازداد فتنة وإبهاراً.. كانت ترى نظرات التجار المفتونة بها.. ولا تعبأ بهم، فلقد سقطت عيناها من زمن على شعرات صدر كيلاني وانتهى الأمر.. وكان صدودها هذا عنهم يؤجج الرغبة في أحشائهم.. تفننوا في التودد إليها بكل الوسائل.. تنافسوا في الشراء منها لكل ما تجمعه من العملة الصعبة بأسعار تفوق السعر الحقيقي.. ورغم الخسارة التي يعرف أنه سيخسرها من وراء ذلك.. إلا أن كل واحد منهم كان مدفوعاً لإرضائها بسعار الشهوة..

ويزداد رأسمالها بشكل جنوني.. أحياناً كانت تتوقف للحظات مسترجعة حالها منذ شهور فقط وعندما كان عبد الغني يسخر منها في حضور كيلاني وزوجته.. وكيف أنها لم تكن قادرة على الرد عليه إلا بدموعها العاجزة، كانت تقطب جبينها في تحد لعبد الغني، ولأهلها، وللمجتمع.. وتعاود الإنطلاق.. وأمامها كيلاني تراه فرحاً بها وبانطلاقها.. وخلفها كيلاني حامياً لها إذا ما تعرضت لمأزق في السوق.. فرحاً بها كأنها إبنته.. كلماته الحانية ملاصقة لقلبها ومشاعرها طوال الوقت، حتى أنها لم تعد تخجل في مصارحته بأنها كانت تتمنى أن يكون هو زوجها وليس عبد الغني. ولمعت عيناه لحظتها بسعادة نادرة سائلاً لها في لهفة حقيقية «أتقصدين ذلك حقاً؟» أجابته بإخلاص وقوة كأنها تتحدى صورة عبد الغني بوجهه المهشم الذي تمثّل لها في الحال «بل أتمناه.. وسأطلب الطلاق عندما يرجع.. لا يمكن أن يضمني معه بيت واحد مرة ثانية»..

الكثير من المشروعات التجارية عرضت على جميلة في بور سعيد.. على أن تكون شريكة معهم .. كانت تعرف بالطبع أن الهدف من هذه المشروعات هي أن تدخل في

نهاية الأمر معهم إلى الفراش.. ولذلك كانت تتملص منهم بذكاء.. ويلتهب شوقهم إلى الوصول إليها بأي ثمن.. ولكنها كانت واعية لكل أفكارهم الخبيثة.. فلقد رفضت أن تذهب مع أحدهم لإحضار الفلوس المصرية مقابل العملة الصعبة التي غيرتها منه من البيت وهو قريب.. كانت ترفض الركوب مع أي منهم في سيارته ولو إلى مسافة قريبة.. لم تعد تقبل هداياهم عندما لمحت في عيني كيلاني نوعاً من العتاب.. فكرت في وسط هذه السعادة والحرية الجديدة أن يكون انتقامها من عبد الغني وكل الماضي مراً وخبيثاً.. بدأت ترسل خطابات إلى عبد الغني توهمه فيه بأنها آمنت برأيه في أن «لا خير في لذة يعقبها ألم.. والخير.. كل الخير في ألم تعقبه لذة».. كانت تلمح فرحته البلهاء في خطاباته، لأنه نجح في (برمجة) أفكارها.. ويجعل منها قطة مغمضة العينين.. بينما هي الأن تتاجر في ما يقترب من المليون جنيه، في خلال عام واحد من فراقه لها.. ما أكسبها جرأة وصلافة إلى الحد الذي فقدت معه اهتمامها بالآخرين.. لم تكن تعطي أذناً صاغية إلى ما يمكن أن يتقول به عنها الحاقدون من الجيران أو الأقارب.. ولم يكن من الصعب عليها أن تواجه أباها غير خائفة وغير

مرتبكة.. كما كانت من قبل.. وتعترف أمامه بكل ما وصل إلى سمعه.. وأنها فعلاً تتاجر في العملة.. وأنها أصبحت سيدة أعمال، وأنها خلعت الحجاب.. لكنها ستظل شريفة طاهرة.. لم يملك أبوها لحظتها وقد غارت عيناه في أعماق وجهه إلا أن يقول «الحق عليّ أنا لأنني لم أحسن اختيار الزوج الذي يصون لحمي. هذا الذي ترك بيته جرياً وراء حفنة (دولارات).. وانسحب من أمام ابنته المتبجحة يجر قدميه جراً.. مبتلعاً سموم وجرعات الخزي والعار.. وبعد أيام عرفت أنه مات.. فذهبت تعرض على أمها أن تأتي لتعيش معها وتجلس لرعاية ابنتها؛ لأنها لم تعد متفرغة إليها تماماً وتضعها في الحضانة.. لكن الأم رفضت بحنق وإصرار متهمة إياها بأنها قتلت أباها، وتريد أن تقتلها هي الأخرى.. لم تعبأ بما قالته أمها، وانسحبت من أمامها متلمسة لها العذر بأن الحزن على أبيها هو السبب في هذا الهذيان.. لقد كانت مرتبطة به جداً.. كانت تابعة وعبدة أمينة.. وغابت عن أمها لفترة.. إلى أن عادت لتقول لها لقد قررت رفع دعوى على زوجها الغائب تطلب فيها الطلاق.. ووقفت أمها في وجهها.. رفضت ذلك بكل إصرار.. وأن هذا لا يليق ببنات الأصول.. ولكن جميلة ضحكت ساخرة

بشكل هستيري «بنات الأصول؟!!.. أنا لا أذكر أن أبي رحمة الله عليه كان باشا» ولم تجد أمها من وسيلة تعبر بها عن سخطها عليها ولعنتها لها إلا أن تبصق على وجهها الذي صارت تهتم (بمكياجه) الكامل ناثرة شعرها الذهبي خلف ظهرها.. ولكن ردت عليها جميلة بتحد وشراسة، وأقسمت بأنها ستبدأ في الإجراءات من الغد.. حتى تقطع كل علاقتها بالماضي.. وتتخلص من اختيارهم السيىء لعبد الغني.. وبمساعدة من كيلاني وأحد المحامين من أصدقائه تم الطلاق، وأحضر الشهود الزور بأن زوجها سافر منذ سنوات ولا تعلم عنه شيئاً، وأنها تخاف على نفسها من الفتنة وكان أكثر الفرحين بهذا الطلاق هو كيلاني!! فها هو يقترب من تحقيق الحلم الذي سخر له كل حياته، منذ أن وقعت عيناه على جميلة تسير مع زوجها عبد الغني في أيامهما الأولى من الزواج.. هتف هاتف داخلي قوي بأن «هذه المرأة خسارة في هذا الرجل القميء.. وأنها يجب أن تكون لي في يوم من الأيام».. ووجد الفرصة مناسبة للإقتراب منها، عندما تعرف على زوجها موهماً إياه بأنه سيحقق له ربحاً أكثر من خمسين في المائة.. رغم أن تجارته لا تحقق له نصف تلك النسبة.. ولولا اعتماده على بعض الصفقات في

تجارة العملة لخسر خسارة كبيرة.. وخطط للموضوع بدقة متناهية.. فهو لا يريدها مجرد شهوة.. لحظات وينتهي منها ولذلك لم يفكر في حل مراهق.. كان يمكنه أن يضع لها ولزوجته مخدراً في مشروب ويقضي غرضه رغم أنفها وفي وجود زوجته.. إنه يريدها له مدى الحياة.. لم ييأس اتبع معها النفس الطويل.. من خلال صداقته مع عبد الغني أمكنه التأثير عليه.. «لماذا شراء الذهب الآن بينما ثمنه يمكن أن يحقق أرباحاً مضاعفة!» ويمتنع عبد الغني عن شراء الذهب «ولماذا تصطحب الأولاد معك إلى اليمن وتبدد مدخراتك!» ويحجم عبد الغني عن أخذهم معه بحجة المكان الصعب.. ويشجعه على البقاء هناك لعامين متتاليين توفيراً للمصروفات والهدايا وتذاكر السفر.. ثم يأتي بعدها ليدخلا معاً في عمل مشروع كبير يغنيه مدى الحياة.. ثم يترك عبد الغني، ويتولى جميلة.. يحقق لها كل أحلامها وذاتها.. يقربها منه.. يدخلها في نطاقه.. يشعرها بإعجابه الدائم.. يقدم لها الهدايا الذهبية.. يصطحبها في زيارات ونزهات إلى الإسكندرية وبور سعيد.. يشعرها بجمالها وبحريتها.. يطلب منها أن تنزع عنها الحجاب.. فالحجاب لم يخلق لكي يكفن هذا الشعر الجميل.. وأنه يشعر بسعادة

غامرة عندما ينظر الحسد في عيون الناس من حوله، لأنه يسير مع هذا الجمال الفاتن.. وجعل من نفسه وبإخلاص شديد أباً حقيقياً لإبنتها عفاف.. فهي تعلم أن زوجته لا تنجب.. وكان على وشك أن يطلقها.. لكنه احتفظ بها حتى لا يحرم نفسه من زيارة جميلة لبيته.. وكان في ساعات كثيرة يبدي تعجباً في شكل رثاء لحالها، ونقمة على أهلها الذين فرطوا فيها هكذا.. كيف يزوجونها إلى عبد الغني؟!!.. إن مثلها جديرة بأن تتزوج من أكثر الشباب وسامة وأكثرهم غنى.. إنه يندم على اليوم الذي مر عليه قبل أن يراها.. باختصار أغرقها في بحر من السعادة والنشوة.. حتى أن من يراها الآن ولأول مرة يحسب أنها لم تزل بنتاً بكراً لم تتزوج بعد.. لأن هذا التوهم الشهواني والجنسي الذي يغمر كل وجهها وتلك الخطوات التي تثب فوق الطريق في رشاقة وحيوية.. وتلك السيقان الممتلئة المتناسقة تخطو في دلال.. هذا الصدر الناهد المتماسك.. كل هذا لا ينبىء عن أن هذه المرأة قد سبق لها الزواج، وأنها قد أنجبت طفلة هي الآن في عامها السادس.. ولكن الذي يقترب منها أكثر ويتفحص عينيها، سيعثر حتماً على السبب الحقيقي وراء ذلك.. إنها حالة الحرية والحب الذي تعيشه بعمق

وبمتعة وبإخلاص مع فتى أحلامها الذي بعث من جديد.. كيلاني.. لم يعد حلماً.. صار حقيقة ملموسة.. تمد يدها إليه.. تتحسس تلك الشعرات النافرة في صدره وتهمس له في رقة فتاة عذراء.. «هل تصدق أنني كنت أحلم طوال عمري بأن أتزوج من شاب يمتلىء صدره بشعر كثيف.. لي رغبة قوية بمسح وجهي في صدرك» ويسارع كيلاني في شوق وسعادة مقترباً فاتحاً قميصه قائلاً «وما يمنعك من ذلك الآن.. ألست زوجتي؟» تقترب منه أكثر وتمد يديها العاريتين إلى ذراعيه.. وتسافر للحظات طويلة في عينيه تتأمل قرص قزحيتها بلونهما البني اللامع .. وتسأله بهيام شديد. «هل تحتفظ في عينيك بهذا العسل كي تسحرالناس به؟!!» كان لا يتمالك نفسه لسماع هذا الغزل الساخن، فتثور في أعماقه براكين الشهوة.. وبعد ممارسة الحب معاً لساعات طويلة.. تدمع عيناها حسرة وندما على عمرها الذي ضيعته مع ذلك الفلاح.. و تقرر مواصلة الانتقام منه من عمرها الذي ضيعه هدراً.. لقد ترك لها توكيلاً عاماً.. وهتفت في إصرار لكيلاني «لن أرجع له مليماً واحداً.. إن هذه الفلوس هي تعويضي من أيام الضياع التي تركني لها.. هي فلوس عفاف إبنتي التي حرمها من حنان الأبوة وهو على قيد

الحياة.. مقابل (الدولارات) .. لكي يجمعها.. ويسخر مني في النهاية لأني عاطلة ولا أعمل.. منكراً على هذا العذاب الذي سببه لي عندما تهرب من مسؤولية البيت وتربية عفاف.. وسارقاً حقي في الحياة كزوجة» ويصمت كيلاني فرحاً بذلك «كلما ازداد حقدها على عبد الغني ازداد حبها وتمسكها بي» هكذا كان يقول لنفسه.. وتستمر السعادة معهما بعد زواجهما لمدة قاربت الستة أشهر يتقابلان في الشقة التي أثثها لها في بور سعيد.. بعيداً عن زوجته وعن الجيران.. فلقد اتفق معها على تأجيل إعلان ذلك، وتأجيل الإنجاب الذي يتشوق إليه منها إلى أن يأتي عبد الغني في العطلة ليفاجأ بالأمر.. ومع كل الحالات فقد أعد لكل شيء عدته، كانت كل الخطابات التي ترسل منه، أو من جميلة لخداع عبد الغني كانت بخطوط غير خطوطهما، حتى إذا ما وصل الموضوع إلى القضاء.. دفعا بتزوير هذه الخطابات لأنها ليست بخطيهما.. وتفرغ كيلاني لكل شيء بدقة متناهية كان يعد لها بإحكام.. وجعلها تشيع بين الجيران من فترة طويلة بأن زوجها البخيل سافر ولم يترك لها ما تنفق به على نفسها.. ما جعلها تخرج للعمل عن كيلاني.. وكذلك افتعلت نزاعاً مع أم عبد الغني وقاطعتها حتى لا

تأتي إليها، وتلمح أي شيء في الشقة غير عادي.. وكانت تموه على زوجة كيلاني بزيارات ودية حميمة بين الحين والحين.. إلى أن كان (التلغراف) الذي وصلها منذ أيام.. ورتبت كل شيء مع كيلاني، وقررا أن يتم اللقاء الأول بعيداً عن الزوجة والجيران حتى لا تكون الفضيحة والبلبلة.. وقررا أن يتم اللقاء في بيت أهل جميلة.. وأحضرت أمه.. وطلبت منها أن تخبر إبنها بضرورة طلاقها.. لأنها لن تعيش معه مرة ثانية.. وتركتها واصطحبت إبنتها ذاهبة إلى بيت أهلها، حيث لا يوجد في البيت غير أمها.. في الوقت نفسه الذي أخبر كيلاني زوجته بأنه ذاهب لعدة أيام إلى الإسكندرية؛ لإنجاز بعض الأعمال التجارية هناك.. وجهزت له حقيبة ملابسه التي توجه بها في الحال مع جميلة زوجته إلى بيت أهلها لمواجهة الأمور بحسم..

لم يطل الإنتظار.. في اليوم التالي، في الصباح دق الباب.. سرت قشعريرة إشمئزاز وخوف في حلق جميلة وارتعش جسدها الذي تعمدت أن يكون شبه عار.. فهي تجلس بحريتها في وجود زوجها الواثق من نفسه كيلاني.. ارتعش جسدها الفاتن ارتعاشة تحفز.. وتنحنح كيلاني وقد خبأ في حلقه كل الكلام الذي سيقوله لعبد الغني ..

ومرقت في المكان لحظة توتر كاملة.. بعدها فتح عبد الغني الباب ودخل حاملاً لحقيبته في الكتف وعروسة عفاف في حضنه.. بهت للحظات لمنظر زوجته العفيفة المحجبة وهي هكذا شبه عارية في حضرة رجل غريب!!.. نظر إليها بثورة، وقبل أن يصرخ متقدماً إليها.. اعترضه كيلاني، وحال دون تقدمه خطوة واحدة، موضحاً أنه لا يجب أن يدخل.. فلقد أصبح الآن رجلاً غريباً عن جميلة.. ولا يجوز له الدخول هكذا دون استئذان، وقبل أن يفيق عبد الغني من دهشته.. كان كيلاني جاهزاً بكل المستندات التي تثبت صحة كلامه.. حكم المحكمة بالطلاق!.. قسيمة زواجه من جميلة!.. وراح يتنقل بعينيه الذاهلتين بين ورقة وأخرى غير مصدق!.. لمح عفافاً إبنته تمر من أمامه دون اهتمام.. كانت تحمل عروسة دمية.. كانت أكبر وأجمل من هذه العروسة التي أحضرها لها عبد الغني، تقدم منها لكي يعطيها العروسة.. لكن عفافاً نفرت منه وقالت ببراءة «شكراً يا عمو.. بابا كيلاني أحضر لي عروسة أكبر منها».. جفلت عيناه وابتسم في حزن عندما سمع عفاف تتكلم بطلاقة ووضوح.. لم تعد تسقط الحروف كما كانت لقد كبرت.. لكنها تنفر منه وتنكره.. للحظات طويلة وقف

متسمراً في مكانه ينقل بصره الزائغ بين كيلاني وجميلة وعفاف التي انسحبت من أمامه غير عابئة بوجوده، وكأنها لم تعد تعرفه.. أو لم تعد في حاجة إليه.. وكساه العرق فجأة.. ارتعش كفه بشيء كان يخبئه بين أصابعه.. ثم قذف به في وجه جميلة.. تبين أنه علبة مجوهرات صغيرة.. وفي صمت ووجوم خلع الحقيبة المعلقة في كتفه وألقاها في وجه جميلة.. لكن ذراعه تقلصت حول العروسة التي أحضرها لعفاف.. لم ينطق بكلمة.. استدار راجعاً.. خرج من الباب مصدوماً ومصعوقاً وتنفس الإثنان بارتياح.. بعد أن هرب الدم من عروقهما خلال هذا الوقت العصيب.. وفي اللحظة التالية، ارتمت جميلة باكية تمرغ وجهها في صدر كيلاني وشعره الأسود الخشن.. وهمست في توتر وسعادة «كنت أعمل ألف حساب لهذا اللقاء.. معك أستطيع مواجهة الدنيا كلها».. احتضنها ضاغطاً على جسدها اللدن في حب وحنان كأنه يشعرها بأمان الدنيا كله.. في محاولة منهما لنسيان كل هول اللحظة الماضية.

يبدو أن عقل عبد الغني الواعي لم يستطع أن يصدق كل ما رأى وكل ما سمع.. استحالة أن يقع مثل هذا على ظهر الأرض!!.. استحالة أن يفقد كل شيء في نفس

الوقت!!.. المال الذي ضيع شبابه وحياته في جمعه وإدخاره!!.. لم يصدق أن كل طموحاته ومشاريعه طارت مع الريح فجأة!!.. كان بينه وبين أن يكون مليونيراً خطوات قليلة!!..مصنع المسامير!!.. مصنع (بسكويت الجيلاتي)!!.. مصنع النسيج الذي سيكبر!!.. عضوية مجلس الشعب والصداقة مع الوزراء!!.. والعمل السياسي!!.. منافسته لطلعت حرب!!.. كل هذا ضاع؟!! يفقده في لحظة؟!! دونما خطأ منه!!.. زوجته الجميلة الفاتنة الصالحة، تتحول في لحظة إلى عاهرة؟!!.. إبنته ترفضه وترفض العروسة التي دفع ثمنها عمره؟!!.. في لحظة واحدة يفقد كل آماله وأحلامه وحياته!!.. كل شيء!!.. هذا غير صحيح!!.. هذا مرفوض!!.. هذا كذب!!.. هذا كابوس!!.. هذا كابوس ثقيل!!.. هذا لم يقع أبداً!!.. أحس عبد الغني بضيق يضغط على صدره إلى حد الإختناق.. تبعه هذا العرق الغزير الذي نزف من تحت شعر رأسه وانحدر مراقاً فوق خديه وعينيه وفي قناة ظهره.. لكن هذا الضيق الذي اعتراه ما لبث أن خفت حدته شيئاً فشيئاً، عندما توهم أنه اهتدى أخيراً إلى بيت صهره الذي ظل يبحث عنه منذ الصباح ولم يعثر عليه.. ولم يلق باللائمة بالطبع على ذاكرته

الضعيفة التي أنسته مكان بيت صهره الذي توجد به زوجته الحبيبة جميلة، وابنته الأثيرة عفاف.. لكن هذا التغيير في الأبنية، والمنشآت الجديدة هي التي ضللته.. وإلا كان اهتدى إليه من أول مرة.. فلقد أحاطت به العمارات الشاهقة من كل مكان.. كما أن هذه التوكيلات السياحية، ومعارض الأجهزة الحديثة التي انتشرت في كل مكان حول بيت صهره كالجراد.. كان يذكر أن بيت صهره يقبع هادئاً وسط الحقول الخضراء.. لكن الآن يراه محشوراً بين العمارات الضخمة.. طرب قلبه وفرح كثيراً عندما اقترب من بيت صهره.. لقد سمع ضحكات عفاف الصغيرة.. إن لديه قدرة رهيبة في التعرف على صوتها وضحكاتها من بين أصوات وضحكات ملايين الأطفال.. ودفعه الشوق دفعاً إلى التعجل في طرق الباب.. دهمه سؤال غريب «ألم يكن صهره يسكن من قبل في شقة في الدور الثاني؟!.. كيف أصبحت شقة في الدور الأرضي وتفتح نافذتها على الطريق العام؟!».. لكن سرعان ما سافر هذا السؤال بعيداً بعيداً، واضمحل وتلاشى كسحابات صيفية خفيفة ضربتها الرياح الدافئة.. أعاد طرق الباب من جديد، وقلبه ينبض بفرحة وشوق إلى أسرته، وإلى عفاف الحلوة التي أحضر لها

العروسة التي طلبتها..لقد قرر أن يفاجئها بإطلاق عبارة «بابا وصل يا عفاف يا عسل»..ثم يرفعها إلى أعلى كما كان يفعل معها قبل أن يسافر إلى اليمن.. يقبلها بعمق حتى يرتوي، ثم يعطيها العروسة، ويعلمها كيف تضغط الزر لكي تغني لها أغنياتها الجميلة.. وفتح الباب.. وقبل أن يقتحم الباب برزت من خلفه سيدة ممتلئة، لم يرها من قبل.. توقف برهة يسترجع صورتها لعله رآها من قبل نيسها.. فلقد مرت ثلاث سنوات لم يأت فيها إلى هنا.. عبثاً حاول التذكر.. فسارع بسؤالها لإنقاذ الموقف: من فضلك.. جميلة موجودة؟

هزّت المرأة رأسها مستغربة: من جميلة؟!!

أجاب موضحاً: جميلة زوجتي، وعفاف إبنتي.

أعادت هز رأسها نافية: لا توجد هنا هذه الأسماء.. لا يسكن هنا غيري أنا وزوجتي وأولادي.

أعاد التساؤل بدهشة أكثر: أليس هذا منزل عمي أبو ممدوح؟!

ردت عليه متذكرة مبتسمة: لا.. لقد باعه لنا منذ سنوات.

إستولى عليه فجأة قنوط ويأس وسأل: ألا تعرفين مكانهم الجديد؟

هزّت رأسها بأسف معتذرة: في الحقيقة منذ شرائنا لهذا البيت منهم لم نعد نعرف عنهم أي شيء.. فقط سمعنا أن لهم إبنة تتاجر بالعملة الصعبة.. اشترت لهم (فيلا) كبيرة وضخمة وأنيقة.. لكن لم نجتهد لمعرفة مكانها.. لأنه بالطبع وكما تعلم هذا أمر لا يعنينا في شيء..

طأطأ رأسه ثم رفعها، وبدا أمامها منكمشاً مبتئساً.. ولاحظت أن دموع عينيه تتململ وتتجمع داخل مآقيه، وتوشك على الإنحدار فأثارها ذلك، وشعرت تجاهه بالشفقة فقالت له: أرجو أن تجفف دموعك.. لأن دموع الرجال غالية.. ويمكنك أن تسأل هذا الرجل الذي يجلس في نهاية هذا الطريق.. هو رجل شيخ ومجرّب.. يمكن أن تتعرف عليه من خلال شعر رأسه الفضي الذي يسيل فوق كتفيه، وكذلك لحيته البيضاء.. رغم أنها كانت سوداء جدا في العهود الغابرة.. عندما كان يعمل في خدمة الحكومة كشرطي مرور في أحد أكشاك المرور الكثيرة المتناثرة على تقاطعات الطرق الزراعية.. لكنه مسكين.. بعد أن تسلم

عمله هناك نسي استعمال القلم ودفتر المخالفات عهدته.. لأنه كان مشغولا طوال الوقت بالانحناء الدائم والمتواصل فوق تراب الطريق، لالتقاط النقود المعدنية التي كانت ترمي إليه من السيارات السريعة المخالفة.. حتى أحيل إلى المعاش بسبب وصوله إلى سن التقاعد والراحة.. وعندما عاد إلى بيته طلباً لراحة ما قبل الموت.. بعد ذل ومعاناة الانحناء فوق تراب الطريق..صدم عندما تنكرت له أسرته ـ حتى زوجته التي ماتت قبل سنوات ـ طرده أولاده.. خرج من البيت يهيم على وجهه.. كأنه يكفر عن ذنوب ارتكبها.. غاب سبع سنوات عن عيون الجميع، إلى أن ظهر فجأة في هذه المنطقة.. يفترش ظلال الجدران العالية.. يرتحل خلفها كلما ارتحلت.. نسي الماضي.. صار يبيع الحكمة والتجربة المرة للآخرين.. أشاع عنه البعض أنه واصل ليله بنهاره هائما على وجهه إلى أن وصل إلى العين المستورة التي شرب منها سيدنا الخضر عليه السلام.. شرب منها.. وصار حكيما وعالما بالغيب.. لكن البعض الآخر نفى هذه الإشاعة بشدة وقالوا لا يعلم الغيب إلا الله وحده.. ومن قال بغير هذا فقد كفر.. وأكدوا أن الحقيقة تتلخص في أنه عثر على العين التي استحم فيها سيدنا أيوب عليه السلام، وبرىء من علته

بعد طول صبر.. وكذلك فعل هذا الرجل.. استحم فيها واغتسل من كل ذنوبه الفائتة.. وهناك الكثير من الإشاعات حول هذا الرجل.. لكن الشيء الوحيد المؤكد والذي يعرفه الجميع أنه لم يعد يرتكب أية معصية.. ولم يعد يضر نفسه.. ويحاول مساعدة الآخرين ويرشد الضالين والتائهين إلى الطريق الصحيح.

انتصرت السيدة على غريزتها، وتمكنت من التوقف عن مواصلة التحدث والكلام.. بينما استمر عبد الغني أبو ثروة في التطلع إليها بعمق شديد، وبدهشة حقيقية.. كأنه يصيغ الصمع إلى أغرب الحكايات في التاريخ.. لم يعلق بكلمة واحدة إلى أن أفاق على صوت صفعة الباب في وجهه بعد أن انكمشت المرأة متسربة إلى أعماق بيتها دون أن تستأذن.. وذلك لأنها خافت من وجهه الواجم الشارد، وعينيه اللتين لا تجفلان أبداً.. كأنه سمكة كبيرة.. عند ذلك انتفض بدنه، وجفلت عيناه للمفاجأة.. زاد تقلص ذراعه حول عروسة عفاف.. ضمها إلى صدره أكثر في نوبة إشفاق وعطف على ابنته الوحيدة التي راعها صوت غلق الباب المفاجيء من امرأة قليلة الحياء «كل النساء في العالم هكذا إلا زوجتي» ثم استدار مستخفاً بكل ما قالته مؤكداً

لنفسه أن هذه المرأة ليست في كامل وعيها، وعقد عزمه على الرجوع فوراً إلى شقته.. حتماً سيجد هناك جميلة تنتظره بقميص النوم (البيج) هي تعرف ذوقه وتحقق كل رغباته.. وإن لم يجدها هي وابنته؛ فسيسأل عنهما صديقه الوفي وشريكه في التجارة كيلاني الغتت.. وحتماً سيجد عنده العنوان الجديد لصهره.. وقد يصطحبه معه إلى بيت صهره لإصلاح ذات البين بينه وبين زوجته..

عندما وصل عبد الغني إلى محطة الحافلات التي سيركب منها الحافلة إلى البلد.. خامره شعور قوي في صدق هذه المرأة.. ولماذا لا أسأل هذا الرجل الذي قالت عنه؟.. لن أخسر أي شيء أكثر مما خسرت!.. عاد من حيث جاء باحثاً عن الرجل بأوصافه الفضية التي قالت بها المرأة.. وصل إليه عبد الغني دون جهد.. لأنه لم يكن بعيداً عنه.. لقد كان يسكن في خياله.. هناك.. وقف قبالته.. كان الرجل يضع أمامه أوراقاً كرتونية صفراء.. مساحتها حوالي ثلاثين في خمسين سنتميتراً.. أقلام من البوص.. دواة حبر أحمر.. قال عبد الغني محذراً لنفسه «لقد عرف الجميع عنك الذكاء والفطنة والحرص.. فلا تجعل هذا الرجل الأشيب يستخف بك.. أو يستغلك أو يسرقك..

يجب أن تلعب معه اللعبة بحرص شديد.. كما لعبتها مع كيلاني الغتت وسرقت منه كل أمواله وسلبت زوجته.. أحبتك وهجرته لما تتميز به عنه من فتنة وخفة دم وقوة عضلية.. المرأة تعبد الرجل قوي العضلات.. وهو مسكين يشبه عود الذرة الشامية أو عود القصب الممصوص.. المهم لا بد أن ألاعب هذا الشرطي القديم المرتشي حتى لا يغرر بي أحد مرة ثانية» ظل الرجل شاخصاً إلى الورق الذي أمامه على الأرض.. كأنه لم يشعر بحضور عبد الغني.. أو أنه يهمل وجود عبد الغني حتى ينطق بكلام ما.. يتمكن الرجل من خلاله استنباط أي معلومات يستخدمها في النصب والإحتيال على عبد الغني.. دس عبد الغني كل أصابع يده في جيبه وأخرج منها قطعة نقود فضية.. ألقاها على الأرض أمام الرجل وفي متناول يده محدثة رنيناً فضياً عذباً.. لكن الرجل تركها.. لم يهتم بها.. بل رفع عينيه بهدوء شديد ومَل إلى أعلى ماسحاً بعينيه النفاذتين وفمه المنطبق على السكون هيئة عبد الغني المنتصب أمامه كنخلة جافة.. ابتدأ من حذائه اللامع.. ثم صعد إلى ساقيه، ثم ركبتيه، وحزامه، حتى وصل إلى ذراعه التي تتقوص حول الدمية (البلاستيك) في حرص وعناية.. هنا تنهد الرجل

بأسى مخلص وهاجت في عينيه عواطف عنيفة من الإستنكار والسخط والعطف والرثاء، مما جعل عبد الغني يتوتر أمامه للحظات ويضطرب.. استمر الرجل في الصعود بعينيه مكتشفاً ومستطلعاً التخطيط الكلي لعبد الغني.. حتى تمكن أخيراً من رشق عينيه النفاذتين كفوهة بندقية يخرج منها المقذوف في عيني عبد الغني.. ظل مركزاً في إصرار على النفاذ في عيني عبد الغني.. لا ينطق بكلمة واحدة.. كأنه يستقرىء باهتمام ما يدور في أعماقه.. ما أصاب عبد الغني بقلق حاد واضطراب عميق أسفر عن ارتعاشات وتشنجات في فكه الأسفل، كلما حاول سترها زاد ظهورها، وتفجرت ينابيع من العرق تحت إبطيه وأعلى فخذيه، حتى حسب نفسه أنه فقد السيطرة على نفسه وبال دون إرادته.. تمنى لو أن هذا الرجل ينطق بكلمة واحدة، يبدد هذا التوتر والقلق.. ولكن الرجل لم ينطق بحرف واحد.. ما اضطر عبد الغني أن يبادر بصوت خرج مخدوشاً من حنجرة جافة: السلام عليكم ورحمة الله.

في الحال أجابه الرجل مبتسماً: وعليك السلام ورحمة الله.. الآن فقط عثرت على مفتاحي بعد أن أغلقت كل الأبواب والطرق بيني وبينك.

قال عبد الغني بهمس مرتبك: أنا لم أقابلك غير الآن فقط.. كيف ومتى أغلقت الأبواب؟!! أشار الرجل إلى القطعة الفضية الملقاة على الأرض وقال بصوت حزين متهدج: ذات يوم أحنيت ظهري لالتقاطها.. كنت سعيداً بها لأني سأربي بها أولادي وأبني مستقبلهم.. حتى صار منهم الطبيب والمحامي والمهندس.. وعندما أحلت إلى التقاعد وعدت إليهم كي أرتاح بينهم.. تنكروا لي.. طردوني.. حتى زوجتي التي كانت ميتة.. خرجت من قبرها هي الأخرى واشتركت معهم في طردي.. ولم تطل صدمتي فيهم.. لأنني أدركت أنني ربيتهم وبنيت مستقبلهم من حرام.. لعنت نفسي.. لعنت الماضي البغيض.. لعنت كل من شجعني وألقى إلي بقرش.. وعلى الفور أدركت نفسي قبل فوات الأوان.. ندمت على ما فعلت وتبت إلى الله.. سحت في بلاد الله سبع سنوات.. كفّرت فيها عن ذنبي.. وبعد أن قبل الله توبتي.. تأتي أنت في محاولة منك لإغرائي، وتضيع مني نعمة الإستقرار التي أشعر بها، وتعيدني إلى حياتكم الخربة!.. لماذا يا عبد الغني يا ولدي؟

تفاقمت دهشة عبد الغني وهو يسمع إسمه يخرج من

فم هذا الرجل.. فاندفع سائلاً في محاولة لفك هذا الغموض الذي أحاط به: كيف عرفت إسمي؟!!

رد الرجل عليه موبخاً: لماذا تهتم بالأمور التافهة وتترك الأشياء الهامة والخطيرة.. لقد أتيت إلي لكي تسألني عن زوجتك وإبنتك.. عن بيت صهرك.. أليس كذلك؟

وجم عبد الغني مذهولاً وأومأ برأسه موافقاً على سؤال الرجل.. هزّ الرجل رأسه بأسف: هما مع الذئب في أمان.

صرخ عبد الغني في وجه الرجل: أي ذئب؟!.. أين؟!!

قال الرجل مؤنباً بمرارة: وهل هناك ذئب غير صديقك المخلص كيلاني الذي جعلت منه حارساً على قطيعك في غيابك.. فسرق مالك وطمع في أسرتك..

كانت المرة الأولى التي يصاب فيها عبد الغني بغيبوبة.. سقط فيها على الأرض.. عندما أفاق منها وجد خلقاً كثيرين حوله.. لم يكن يعرف منهم أي واحد.. كان بينهم هذا العجوز.. تفرق الناس من حوله، ولم يبق غير العجوز معه يواسيه، ويطيب خاطره بقوله: يا بني لا بد أن تكون قوياً.. إنها أحداث تقع في كل يوم وفي كل مكان.. ونحن السبب.. نحن نخرب بيوتنا بأيدينا.. لقد سبقتك أنا إلى

هذا الغباء.. أردت أن أبني لأولادي مستقبلاً، فدمرتهم بقبولي الرشوة و....

قاطعه عبد الغني باكياً يمزقه الإحساس بالظلم: لا تشبهني بك.. أنا لم أرتش.. لم أحصل على قرش واحد حرام.. سافرت..اغتربت.. جوعت نفسي.. تحملت إذلال الآخرين لي.. حرمت نفسي من دفء الأسرة.. لكي أبني مستقبلهم.. أنا لم أرتكب أي جريمة أو إثم.. ثم انخرط في بكاء عميق كأنه يبكي نيابة عن كل المظلومين في العالم.. واصل الرجل بنبرة تأنيبية: وما الفرق بين الإثم والحماقة.. إن كلاً منهما يترتب عليه خراب البيوت العامرة.. إن ما فعلته يا بني هو الحماقة بعينها.. كيف تترك زوجتك الجميلة وحدها هل نسيت أن أول جريمة قتل في التاريخ كانت بسبب زوجة جميلة.. فضلاً عن أن المرأة التي يغيب عنها زوجها تزداد جمالاً وشهوة في نظر الذئاب.. حتى ولو كانت أقبح النساء.. صرخ عبد الغني في وجهه مدافعاً عن نفسه: لم يكن من الممكن اصطحابها وابنتي معي.. الظروف هناك لا تسمح.

زعق الرجل العجوز في وجهه ناهراً إياه: لا تكذب على

رجل يعرف كل شيء عنك.. أنت لم تفعل هذا إلا خوفاً على المال الذي ستصرفه عليهما هناك.. أردت أن تبقيهما في مصر لأن الحياة فيها رخيصة وأقل مبلغ من المال يكفيها مصاريف.. ولو ذهبا معك فإن إدخارك (الدولارات)، وتحويلها إلى كيلاني الغتت سيقل كثيراً.. وأنت تريد أن تصبح مليونيراً في أقرب وقت، لدرجة أنك فكرت في استغلال أمك العجوز، وتشغيلها على المكِنة التي ستصنع المسامير.. تضحي بكل شيء من أجل المال.. إن هذا كله هو الحماقة بعينها يا ولدي.. وهذه هي النتيجة.

جفف عبد الغني دموعه وقال في تحد: هل تقصد أنني قد فقدت كل شيء.. زوجتي و: بنتي ومالي.. لو حدث هذا لقتلت كيلاني الغتت.

هز الرجل رأسه نافياً: لا.. لن تستطيع أن تفعل هذا.. فقد يقتلك هو قبل أن تقتله.. ثم لو تم لك ما أردت وقتلته.. ستدخل السجن.. ولن تتمكن من إرجاع أي شيء.. سواء المال أو الزوجة.. لأنك تعلم أن جميلة هي التي اشتركت معه بإرادتها في تزوير كل شيء، وحصلت على الطلاق.. وهي التي تزوجت كيلاني بكامل إرادتها..

وأنت بالنسبة لها أحقر رجل في العالم.. ألم تقل لك ذلك بعينيها.. ثم إنك لن تستطيع العودة إلى القرية مرة أخرى، وإلا صرت أضحوكة الجميع.. ومحل سخرية وتندر من أهل القرية.. سيعايرون أمك بك.. انخرط عبد الغني من جديد في بكاء العاجز وغمغم في يأس: إذن لا بد أن أنتحر.. الموت هو الحل الوحيد لأمثالي.

صرخ فيه الرجل العجوز معنفاً بتهجم: هل جننت؟!.. تريد أن تموت كافراً؟!!.. إذاً فقدت الدنيا يا عبد الغني، فلا يجب أن تفقد الآخرة.. تصرف مثلما تصرفت أنا.. حتى تفوز بأي شيء بدلاً من فقدهما معاً.. إنهض معي.. هيا نقوم بعمل مفيد، هناك آلاف عبد الغني غيرك وآلاف كيلاني الغتت يتربص به.. هيا معاً نقاومهم.. نوعيهم نحذرهم من الإحتراس من إغراء (الدولار).. ها هي الورقة.. وها هو القلم والحبر الأحمر، سنكتب إحترس من (الدولار).. سنطوف معاً في طول مصرر وعرضها محذرين كل عبد الغني.. وما أدرانا.. ربما أصبحنا في يوم من الأيام مفكرين لمذهب جديد ينتشر في كل أنحاء العالم.. وتنجح في هذا الطريق إذا كنت فشلت في الآخر.. ماذا قلت؟

لم يجبه عبد الغني.. لكنه انكفأ على لوح الورق ممسكاً بالقلم البوص غامساً إياه في الحبر الأحمر، وراح يكتب بعناية شديدة «إحترس من الدولار».. ونهض في صمت باحثاً عن قطعة من خشب تشبه العصا.. ثبت اللوحة بداخلها.. وسار مع الرجل العجوز في الشوارع والطرقات والأسواق.. محتضناً العروسة (البلاستيك) احتضانه لطفلته.. ورافعاً اللافتة فوق كتفه الأيسر، آخذاً عهداً على نفسه ألا يكلم بعد اليوم إنسياً خلاف الرجل العجوز رفيقه في المصيبة.. ورفيقه في الدعوة إلى صلاح الحال.

وإلى الآن تشعر أم عبد الغني أن الله قد أوفى بعهده معها، عندما تعهدت له بالصبر مقابل أن يحفظ لها إبنها حياً.. ويبارك فيه.. فها هي الأخبار تصلها عنه يوماً بعد يوم من بعض الذين يتعرفون عليه.. وأنه مازال محتضناً للعروسة (البلاستيكية).. ورافعاً اللافتة التي كتب عليها «إحترس من الدولار» يتجول بين الناس وسط الشوارع والأسواق.. البعض أكد لأمه إنه رآه في الإسكندرية.. والبعض الآخر أقسم لها إنه رآه في أسوان.. والبعض قال إنه رآه في مولد السيدة زينب ـ رضي الله عنها ـ بالقاهرة.. وآخرون رأوه

في مولد سيدي أحمد البدوي.. إلا أن كل من ادعوا رؤيته أجمعوا على أنه يهرب منهم.. ولا يتكلم مع أحد.. إلا أنه في بعض الأحيان يدخل في حوار ساخن وغريب مع شخصية غير مرئية يبدو أنها تسير بجواره.. يراها هو وحده ولا يراها أحد غيره.. وتبتهج الأم.. وتزغرد في وجه صباح القرية وفي وجه مسائها، وهي تهتف مؤكدة بأن إبنها صار ولياً من أولياء الله الصالحين صار من أهل الحظوة.. ولكن ما تلبث أن تسقط في بركة من دموع عينيها عندما تتذكر أنها لم تره منذ سنوات.. منذ خرج ذاهباً إلى زوجته وإبنته اللتين استولى عليهما صديقه الخائن كيلاني الغتت.. ولذلك يتهامس أهل القرية فيما بينهم، وشعور بالحزن والرثاء يطحن قلوبهم بأن «الحال لو طال هكذا على أم عبد الغني دون أن تراه فسوف تجن لا محالة».. وفكروا مساعدة لها ورأفة بحالها ـ أن يخرجوا في جماعات.. باحثين عن عبد الغني في كل مكان على أرض مصر.

لذلك أرجو منكم جميعاً أن تفتشوا معهم عن عبد الغني.. تعيدوه إلى أمه.. لا تلقوا باللافتة إلى الأرض.. حاولوا حملها بدلاً منه.. فهو قد تعب.. طوفوا بها في كل

مكان.. لكن بعد أن تعدلوا فيها، وتضيفوا إليها ما خشي عبد الغني أن يكتبه.. حتى لا يعترف بذنبه، اكتبوها من جديد كما يلي «إحترس من عشق الدولار».. ويكون لكم من أم عبد الغني الشكر والدعاء.. ومن الله الأجر والثواب.

تمت